فضل علم السلف على الخلف

تأليف

الإمام الحافظ بقية السلف وقدوة الخلف زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن ابن شهاب الدين بن أحمد بن رجب الحنبلي

عنيت بنشره وتصحيحه والتعليق عليه الجمعية الشرعية الاسلامية

يطلب من المكتبة المحمودية التجارية
لصاحبها ومديرها : محمود على صبيح
الكائن مركزها العمومى بميدان الازهر الشريف بمصر
* المطبعة المحمودية التجارية بمصر *

فضل علم السلف

على الخلف

للامام الأصولى الحافظ الفقيه أبى الفرج زين الدين
عبد الرحمن بن احمد الشهير بابن رجب البغدادى
الحنبلى المتوفى سنة ٧٩٥ ه

عنيت بنشره وتصحيحه والتعليق عليه الجمعية الشرعية الاسلامية

طبع
بالمطبعة المحمودية التجارية الكبرى
لصاحبها محمود على صبيح بميدان الجامع الأزهر الشريف بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

قال المؤلف رحمه الله الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين وسلم تسليماً كثيراً .

(أما بعد) فهذه كلمات مختصرة فى معنى العلم وانقسامه الى علم نافع(١) وعلم غير نافع . والتنبيه على فضل علم السلف على علم الخلف فنقول والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله .

قد ذكر الله تعالى فى كتابه العلم تارة فى مقام المدح وهو العلم النافع . وتارة فى مقام الذم وهو العلم الذى لاينفع . فأما الأول فمثل قوله تعالى (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون) وقوله (شهد الله أنه لا إله إلاهو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط) وقوله (وقل رب زدنى علما) وقوله (انما يخشى الله من عباده العلماء) وما قص سبحانه من قصة آدم (٢) وتعليمه الاسماء وعرضهم على الملائكة وقولهم (سبحانك لاعلم

(١) المراد بالعلم النافع العلم المحوط العمل وبه يكلف العالم به من يكونه أفضل العلم المجرد عن العمل . والا فالعلم ممدوح فى نفسه على كل أحيانه بدليل قول الله سبحانه وأولوا العلم

(٢) وحاصل القصة أن الله أخبر ملائكته أنه سيجعل خليفة فى الارض عن القوم الذين أبادهم فاستعظموا ذلك فى نفوسهم لما علموا من سوء أفعال البائدين . وشأن النفس اتباع الشهوة والهوى . فقالوا (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) أى نحن لاستعدادنا الازلى

لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم) . وما قصه سبحانه وتعالى من قصة موسى عليه السلام (١) وقوله للخضر (هل اتبعك على أن تعلمنى

الخلق فيها الكفاية لطاعتك . فأراد المولى تعالى ذكره أن يبين لهم خطأ اعتراضهم فقال (إنى أعلم مالا تعلمون وعلم آدم الاسماء) التى يخفى على الملائكة علمها وعرض مسمياتها عليهم فقال (أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين) فيما اختلج فى خواطركم (قالوا سبحانك لاعلم لنا الا ما علمتنا) اعترفوا بالعجز لقصورهم عن معرفة الاسماء على أبلغ وجه فأمر الله تعالى آدم عليه السلام أن يخبرهم بذلك إظهاراً لشرف العلم وفضله فأخبرهم بأسماء تلك المسميات فذهبت الشبهة عنهم ورجعوا الى التسليم وتفويض أمر ذلك الى المولى جل وعلا . وبذلك تعلم أن لاشرف يوازى شرف العلم أو يقاربه . وأعنى بالعلم العلم النافع الذى تظهر ثمرته بالمتصف به حقيقة لا ادعاء وفقنا الله وإياك الى العلم والعمل به .

(١) وحاصلها على ماورد فى الصحيحين وغيرهما أن نبى الله موسى عليه السلام قام خطيبا فى بنى اسرائيل فسئل أى الناس أعلم فقال أنا لما يعلم من مقام النبوة والرسالة واله اختص بالوحى الى قومه وتبليغ الرسالة . فعتب الله تعالى عليه إذ لم يرد العلم اليه سبحانه وأوحى الله اليه أن لى عبداً هو أعلم منك بمجمع البحرين . وهما بحر فارس والروم على مارواه مجاهد وقتادة وغيرهما ولعل المراد مكان يقرب فيه التقاؤهما والا فهما لايلتقيان الا فى البحر المحيط فذهب موسى ومعه فتاه فلما بلغا مجمع البحرين نسيا الحوت الذى جعل فقدانه أمارة وجدان مطلوب موسى عليه السلام الخ ما قص الله فى كتابه على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم . ثم ان الاخبار فى ذلك ظاهرة فى أن العبد الذى أرشد اليه موسى عليه السلام كان أعلم منه . والذى ذهب اليه الجمهور أنه الخضر . ويستفاد من انكار موسى عليه السلام على الخضر بعد ما عاهده على الصبر وعدم الاعتراض والعصيان عليه وافويض علم ذلك اليه أن الاشياء التى تخالف علم الانسان المقول

مما علمت رشدا) (١) فهذا هو العلم النافع

وقد أخبر عن قوم أنهم أوتوا علماً ولم ينفعهم علمهم . فهذا علم نافع في نفسه لكن صاحبه لم ينتفع به . قال تعالى (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا) (٢) وقال (واتل عليهم

عن الشريعة يجب المبادرة الى انكارها والبحث عن مستندها ومصدرها ولا اسلم لقائلها أيا كان ولو كان أعلم أهل زمانه وأبلغ عصره وأقرانه وأصلح وقته . وبهذا تعلم سقوط ما في كلام بعض المتصوفة القائل بأن الشيخ المربي يسلم له حاله أي لا يعترض عليه ولا يوجه نحوه سؤال اذا فعل فعلا أو قال قولا يخالف ظاهر الكتاب والسنة والعمل المنقول عن صاحب الشريعة المطهرة . ولو سلم ذلك لتعطلت الشريعة . ولبطل العمل بالمروى . ولعمل كل بحسب رأيه وهواه ، ولما كان هناك قانون كلي يرجع اليه . ولغاير قوله تعالى (فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر)

(١) فيما قص الله سبحانه وتعالى من نبأ موسى مع الخضر ارشاد المتعلم لآدابه مع من يجله وفضل العلم حيث سماه الله رحمة ونسبه الى نفسه تفضيلا وتشريفا

(٢) مثل الله جل ذكره حال الذين أتوا التوراة والانجيل من اليهود وحفظوها ثم لم يعملوا بما فيها ولا انتفعوا بآياتها من التصديق برسالة محمد صلى الله عليه وآله وسلم واتباعه ونصرة دينه والاقتداء بأقواله وأفعاله بالحمار يحمل على ظهره أسفارا أي كتبا من العلم لا ينتفع بها ولا يعقل ما فيها بل يمشي بها ولا يدري منها الا ما يمر بجنبيه وظهره من الكد والتعب . ومثلهم من أوتي القرآن والسنة ولم يعمل بهما وبئس مثلا مثلهم وتخصيص الحمار بالتشبيه به لانه أقل الحيوانات رغبة به لقلة الانتفاع به وفي الامثال العربية هو أخلى من جوف حمار قال الشاعر :

نبأ (١) الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الارض واتبع هواه) وقال تعالى (فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الادنى ويقولون سيغفر لنا وان يأتهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله الا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون) (٢) الآية وقال (وأضله الله على علم) على تأويل من تأول الآية على علم عنده من أضله الله

زوامل أسفار ولا علم عندهم | بجيدها الا كعلم الاباعر
لعمرك ما يدري البعير اذا غدا | بأوساقه أو راح ما في الغرائر

والبعير من أخوات الحمار على ما نقل عن ابن خالويه

(١) أي واذكر يا محمد ﷺ لقومك خبره الذي له شأن وخطر قيل انه بلعام بن باعوراء على ما رواه ابن عباس . وكان من العباد في بني اسرائيل وهو الانسب بالمقام . وقد أوتي علما ببعض الكتب السماوية فوسوس اليه الشيطان فكفر بها ونبذها وراء ظهره ولا يخفى على المتأمل ما في قوله تعالى (فاتبعه الشيطان) من المبالغة . اذ جعل من انسلخ عن آيات الله إماماً للشيطان والشيطان يتبعه وهو من الذم بمكان ونظير ذلك قول الشاعر

وكنت فتى من جند ابليس فارتقى | بي الحال حتى صار ابليس من جندي

نعوذ بالله من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع . وله قصة مشهورة ذكرها المفسرون مع موسى عليه السلام وقومه وحصول الفتنة بسبب الله والله أعلم بصحتها .

(٢) أخبر الله تعالى أنه خلف من بعد أولئك القوم الذين ذكرهم الله تعالى قبل خلف سوء في عصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهم اليهود ورثوا كتاب الله تعلموه وضيعوا العمل به فخالفوا حكمه يأخذون الرشوة فيه من عرض هذا

وأما العلم الذى ذكره الله تعالى على جهة الذم له . فقوله فى السحر (ويتعلمون مايضرهم ولاينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق) وقوله (فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون) وقوله تعالى (يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) .

ولذلك جاءت السنة بتقسيم العلم الى نافع والى غير نافع . والاستعاذة من العلم الذى لاينفع وسؤال العلم النافع . ففى صحيح مسلم عن زيد ابن أرقم أن النبى ﷺ كان يقول «اللهم انى أعوذ(١) بك من علم لاينفع ومن قلب لايخشع ومن نفس لاتشبع ومن دعوة لايستجاب لها» . وخرجه أهل السنن من وجوه متعددة عن النبى ﷺ . وفى بعضها ومن دعاء لايسمع . وفى بعضها أعوذ بك من هؤلاء الاربع . وخرج النسائى من حديث جابر أن النبى ﷺ كان يقول «اللهم انى أسألك علماً نافعاً وأعوذ بك من علم لاينفع» . وخرجه ابن ماجه ولفظه ان النبى ﷺ قال «سلوا الله علما نافعاً وتعوذوا بالله من علم لاينفع» . وخرجه الترمذى

العاجل الأدنى ويقولون اذا فعلوا ذلك ان الله سيغفر لنا ذنوبنا تمنيا على الله الأمانى وإن يأتهم عرض مثله فى الرشوة يأخذوه أى يستحلوه ولم يرتدعوا عنه فهم أهل اصرار على ذنوبهم وليسوا بأهل انابة ولاتوبة فكلما أشرف لهم شىء من الدنيا أكلوه لا يبالون حلالا كان أو حراماً ومثلهم من ورث العلم واتخذه ذريعة لأكل أموال الناس بالباطل عصمنا الله من ذلك .

(١) يقال عذت به أعوذ عوذاً وعياذاً لجأت اليه واعتصمت به ومن ذلك المعوذتان (قل أعوذ برب الفلق) و (قل أعوذ برب الناس) لانهما عوذتا صاحبهما أى عصمتاه من كل سوء .

من حديث أبى هريرة ان النبى ﷺ كان يقول «اللهم انفعنى بما علمتنى وعلمنى ما ينفعنى وزدنى علماً» . وخرج النسائى من حديث أنس أن النبى ﷺ كان يدعو «اللهم انفعنى بما علمتنى وعلمنى ما ينفعنى وارزقنى علماً تنفعنى به» . وخرج أبو نعيم من حديث أنس أن النبى ﷺ كان يقول «اللهم انا نسألك ايماناً دائماً فرب ايمان غير دائم وأسألك علما نافعا فرب علم غير نافع» . وخرج أبو داود من حديث بريدة عن النبى ﷺ قال «ان من البيان سحراً وان من العلم جهلا» (١) وان صعصعة بن صوحان فسر قوله «ان من العلم جهلا» أن يتكلف العالم الى علمه مالا يعلم فيجهله ذلك . ويفسر أيضا بأن العلم الذى يضر ولاينفع جهل لأن الجهل به خير من العلم به . فاذا كان الجهل به خيراً منه فهو شر من الجهل . وهذا كالسحر وغيره من العلوم المضرة فى الدين أو فى الدنيا .

(١) الحديث رواه أبو داود عن صخر بن عبد الله بن بريدة عن أبيه عن جده قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول «ان من البيان سحراً وان من العلم جهلا وان من الشعر حكما وان من القول عيلا» . قال أبو داود فقال صعصعة بن صوحان صدق نبى الله ﷺ . أما قوله ان من البيان سحراً فالرجل يكون عليه الحق وهو الحن بالحجج من صاحب الحق فيسحر القوم ببيانه فيذهب بالحق . وأما قوله من العلم جهلا فيتكلف العالم الى علمه مالا يعلم فيجهله . وأما قوله من الشعر حكما فهى هذه المواعظ والأمثال التى يتعظ بها الناس وأما قوله من القول عيلا فعرضك كلامك وحديثك على من ليس من شأنه ولا يريده . قال ابن الاثير يقال علت الضالة أعيل عيلا اذا لم تدر أى جهة تبغيها . كأنه لم يهتد لمن يطلب كلامه فعرضه على من لايريده وبأتى الكلام على باقى الحديث فيما بعد ان شاء الله .

وقد روى عن النبي ﷺ تفسير بعض العلوم التى لاتنفع . فى مراسيل أبى داود عن زيد بن أسلم ، قال قيل يارسول الله ما أعلم فلانا قال بم قالوا بأنساب الناس (١) قال علم لاينفع وجهالة لاتضر » . وخرجه أبو نعيم فى كتاب رياض المتعلمين من حديث بقية عن ابن جريج عن عطاء عن أبى هريرة مرفوعا وفيه ، انهم قالوا أعلم الناس بأنساب العرب وأعلم الناس بالشعر وبما اختلفت فيه العرب وزاد فى آخره العلم ثلاثة ماخلاهن فهو فضل : آية محكمة . أو سنة قائمة ، أو

(١) هو علم يتعرف منه أنساب الناس وهو كثير النفع عظيم الفائدة جليل القدر أشار القرآن الحكيم اليه فى قوله تعالى (وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) وحثت السنة على تعلمه ومعرفته كما سيأتى فى كلام المصنف بعد وقد اعتنى العرب فى ضبط أنسابهم الى أن كثر أهل الاسلام واختلطت أنسابهم بالاعجام فتعذر ضبطه بالآباء فانتسب كل مجهول النسب الى بلده أو حرفته أو نحو ذلك ولاسيما فى زماننا هذا فانك لاتجد من يعرف نسبه الاماقل وندر وهذا العلم مشهور طويل الذيل : وقد صنف فيه كتب كثيرة . وأول من فتح هذا الباب وضبط علم الأنساب الامام النسابة هشام بن محمد السائب الكلبى المتوفى سنة ٢٠٤ فانه صنف فيه خمسة كتب وهى المنزل . والجمهرة . والوجيز . والفريد . والملوك . ثم اقتفى أثره جماعة : منهم أبو الحسن أحمد بن يحيى البلاذرى المتوفى سنة ٢٧٩ صاحب كتاب أنساب الاشراف . وكتاب فتوح البلدان . وعبد الملك بن هشام صاحب السيرة المتوفى سنة ٢١٣ . وأبو جعفر محمد بن حبيب البغدادى . والامام أبو سعيد عبد الكريم المروزى الحافظ المشهور بالسمعانى المتوفى سنة ٥٦٢ صاحب الأنساب وهذا اماهو فيما يوصل الى صلة الارحام كما سيأتى عن المصنف . والحديث محمول على التوغل فيه أو مازاد على قدر الحاجة جمعاً بين الاحاديث .

فريضة عادلة » . وهذا الاسناد لايصح وبقية دلسه عن غير ثقة . وآخر الحديث خرجه أبو داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعا ، العلم ثلاثة ماسوى ذلك فهو فضل : آية محكمة ، أو سنة قائمة ، أو فريضة عادلة ، وفى اسناده عبد الرحمن بن زياد الافريقى وفيه ضعف مشهور (١) .

وقد ورد الامر بأن يتعلم من الانساب ما توصل به الارحام من حديث أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ، تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم ، أخرجه الامام احمد والترمذى : وخرجه حميد ابن زنجويه من طريق آخر عن أبى هريرة مرفوعا ، تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم ثم انتهوا . وتعلموا من العربية ماتعرفون به كتاب الله ثم انتهوا . وتعلموا من النجوم ماتهتدون به فى ظلمات البر والبحر ثم انتهوا ، وفى اسناد روايته ابن لهيعة . وخرج أيضا من رواية نعيم بن أبى هند قال قال عمر تعلموا من النجوم ماتهتدون به فى بركم وبحركم ثم امسكوا وتعلموا من النسبة ما تصلون به أرحامكم وتعلموا ما يحل لكم من

(١) وأيضا فى سنده عبد الرحمن بن رافع قاضى إفريقية وقد ضعفهما جماعة وقال إسحق بن راهويه سمعت يحيى بن سعيد يقول عبد الرحمن بن زياد ثقة وكذا فى حق عبدالرحمن بن رافع : وقال بن معين انه صالح : ورواه الحاكم باسناد حسن والآية المحكمة هى أم الكتاب التى يقابلها المتشابه يعنى الصريحة المعنى لايتطرقها الاحتمال . والسنة القائمة هى الثابتة بحفظ سندها ومتنها . والفريضة العادلة ما اتفق عليه المسلمون لان العمل به واجب ومتبع ومقتدى به : وقوله ماخلاهن فهو فضل أى زائد لاضرورة تدعو اليه .

النساء ويحرم عليكم ثم انتهوا ». وروى مسعر عن محمد بن عبد الله قال قال عمر بن الخطاب « تعلموا من النجوم ماتعرفون به القبلة والطريق ».

وكان النخعي لايرى بأساً أن يتعلم الرجل من النجوم ما يهتدى به، ورخص في تعلم منازل القمر أحمد وإسحق ويتعلم من أسماء النجوم مايهتدى به. وكره قتادة تعلم منازل القمر ولم يرخص ابن عيينة فيه ذكره حرب عنهما. وقال طاوس رب ناظر في النجوم ومتعلم حروف أبي جاد ليس له عند الله خلاق. خرجه حرب. وخرجه حميد بن زنجويه من رواية طاوس عن ابن عباس. وهذا محمول على علم التأثير(١) لا علم التسيير(٢) فإن علم التأثير باطل محرم، وفيه ورد الحديث المرفوع « ومن اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر »(٣) خرجه أبو داود

---

(١) أي أن النجوم ومنازلها تؤثر بالاسعاد والاشقاء كما يقول به بعض كذابي المنجمين حاشا الله والمسلمين من اعتقاد أن المؤثر غير الله سبحانه

(٢) قال تعالى (وبالنجم هم يهتدون) أي في أسفارهم وإلى قبلتهم وبذا يكون مطلوبا نفعه

(٣) معنى اقتبس أخذ وتعلم وحصل علما من علومها أو مسألة. قال الخطابي وعلم النجوم المنهى عنه هو مايدعيه أهل التنجيم من علم الحوادث التي لم تقع كمجيء الأمطار وتغير الأسعار. وأما مايعلم به أوقات الصلاة وجهة القبلة فغير داخل فيما نهى عنه. وقد بسط ذلك في شرح السنة وحاصله أن المنهى عنه من علوم النجوم مايدعيه أهلها من معرفة الحوادث التي لم تقع وربما تقع في مستقبل الزمان مثل إخبارهم بوقت هبوب الرياح ووقوع الكسوف والخسوف ومجيء المطر ووقوع الثلج وظهور الحر والبرد وتغير الأسعار من ارتفاع أو انخفاض ويزعمون أنهم يدركون معرفتها بسير الكواكب واجتماعها

من حديث ابن عباس مرفوعا وخرج أيضاً من حديث قبيصة مرفوعا « العيافة والطيرة والطرق من الجبت »(١) والعيافة زجر الطير والطرق الخط في الأرض »

واقترانها وهذا علم استأثر الله به لايعلمه أحد غيره كما أخبر الله تعالى في كتابه العزيز بقوله (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث) الآية. وأما ما يدرك من طريق المشاهدة من علم النجوم الذي يعرف به الزوال وجهة القبلة والطرق فغير داخل في النهى لقوله تعالى (وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر) ولقوله تعالى (وبالنجم هم يهتدون) فإن فيه إخباراً بأن النجوم طرق لمعرفة الأوقات والمسالك ولولاها لم يهتد الناس لاستقبال القبلة ولما سيأتي عن عمر رضي الله عنه بعد في كلام المؤلف والله الموفق

(١) العيافة زجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرها كما يتفاءل بالعقاب على العقاب. وبالغراب على الغربة. وبالهدهد على الهدى وهكذا وهو من عادات العرب يقال عاف يعيف عيفاً إذا زجر وحدس وظن. وكان بنو أسد يوصفون بها وما يحكى عنهم على مانقله ابن الأثير أن قوما من الجن تذاكروا عيافة بني أسد فأتوهم فقالوا ضلت لنا ناقة فلو أرسلتم معنا من يعيف فقالوا لغليم منهم انطلق معهم فاستردفه أحدهم ثم ساروا فلقيهم عقاب كاسرة احدى جناحيها فاقشعر الغلام وبكى فقالوا مالك فقال كسرت جناحا ورفعت جناحا وحلفت بالله صراحا ما أنت بإنسي ولا تبغي لقاحا

والطيرة بكسر الطاء وفتح الياء وقد تسكن التشاؤم بالشيء. وأصله فيما يقال التطير بالسوانح والبوارح من الطير والظباء وغيرهما. وكانت العرب تعتقد أن له تأثيراً في جلب نفع ودفع ضر فنفاه الشارع وأبطله ونهى عنه وأخبر أنه ليس له تأثير في جلب نفع أو دفع ضر. والطرق الخط في الأرض. وقد نقل ابن الأثير تفسيره عن ابن عباس قال وهو الذي يخطه الحازي وهو علم قد تركه

فعلم تأثير النجوم باطل محرم . والعمل بمقتضاه كالتقرب الى النجوم وتقريب القرابين لها كفر . وأما علم التسيير فاذا تعلم منه ما يحتاج اليه للاهتداء ومعرفة القبلة والطرق كان جائزاً عند الجمهور وما زاد عليه فلا حاجة اليه وهو يشغل عما هو أهم منه . وربما أدى التدقيق فيه الى اساءة الظن بمحاريب المسلمين فى أمصارهم كما وقع ذلك كثيراً من أهل هذا العلم قديما وحديثا وذلك يفضى الى اعتقاد خطأ الصحابة والتابعين فى صلاتهم فى كثير من الامصار وهو باطل .

وقد أنكر الامام احمد الاستدلال بالجدى وقال انما ورد ما بين المشرق والمغرب قبلة . يعنى لم يرد اعتبار الجدى ونحوه من النجوم - وقد أنكر ابن مسعود على كعب قوله ان الفلك تدور . وأنكر ذلك مالك وغيره . وأنكر الامام احمد على المنجمين قولهم ان الزوال يختلف فى فى البلدان . وقد يكون انكارهم أو انكار بعضهم لذلك لان الرسل لم تتكلم

الناس يأتى صاحب الحاجة الى الحازى فيعطيه حلوانا فيقول له اقعد حتى أخط لك وبين يدى الحازى غلام له معه ميل ثم يأتى الى أرض رخوة فيخط فيها خطوطاً كثيرة بالعجلة لئلا يلحقها العدد ثم يرجع فيمحو منها على مهل خطين وغلامه يقول للتفاؤل ابنى عيان اسرعا البيان فان بقى خطان فهما علامة النجح وان بقى خط واحد فهو علامة الخيبة وهو ضرب من الكهانة .

والخط المشار اليه فى الحديث علم معروف وللناس فيه تصانيف كثيرة وهو معمول به الى الآن ولهم فيه أوضاع واصطلاح وعمل كثير يستخرجون به الضمير وغيره وقد يصيبون فيه . والجبت قال الجوهرى كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك وهذا ليس من محض العربية لاجتماع الجيم والتاء فى كلمة واحدة من غير حرف ذولقى . وفى الفائق هو السحر والكهانة

فى هذا وان كان أهله يقطعون به وان كان الاشتغال به ربما أدى الى فساد عريض .

وقد اعترض بعض من كان يعرف هذا على حديث النزول ثلث الليل الآخر وقال ثلث الليل يختلف باختلاف البلدان فلا يمكن أن يكون النزول فى وقت معين . ومعلوم بالضرورة من دين الاسلام قبح هذا الاعتراض وان الرسول ﷺ أو خلفاءه الراشدين لو سمعوا من يعترض به لما ناظروه بل بادروا الى عقوبته والحاقه بزمرة المخالفين المنافقين المكذبين .

وكذلك التوسع فى علم الانساب هو مما لا يحتاج اليه . وقد سبق عن عمر وغيره النهى عنه مع ان طائفة من الصحابة والتابعين كانوا يعرفونه ويعتنون به . وكذلك التوسع فى علم العربية لغة ونحواً هو مما يشغل عن العلم الأهم والوقوف معه يحرم(١) علماً نافعاً . وقد كره القاسم بن مخيمرة علم النحو وقال أوله شغل وآخره بغى . وأراد به التوسع فيه . ولذلك كره احمد التوسع فى معرفة اللغة وغريبها وأنكر على أبى عبيدة توسعه فى ذلك وقال هو يشغل عما هو أهم منه . ولهذا يقال ان العربية فى الكلام كالملح فى الطعام يعنى أنه يؤخذ منها ما يصلح الكلام كما يؤخذ من الملح ما يصلح الطعام وما زاد على ذلك فانه يفسده . وكذلك علم الحساب يحتاج منه الى ما يعرف به حساب ما يقع من قسمة الفرائض والوصايا والاموال التى تقسم بين المستحقين لها والزائد على ذلك مما لا ينتفع به الا فى مجرد رياضة الاذهان وصقالها لا حاجة اليه ويشغل عما هو أهم منه . وأما ما أحدث بعد الصحابة من العلوم التى توسع فيها أهلها وسموها

---

(١) قوله يحرم علما نافعا من الحرمان لا من التحريم اه

علوما وظنوا أن من لم يكن عالما بها فهو جاهل أو ضال فكلها بدعة(١) وهي من محدثات الامور المنهي عنها . فمن ذلك ما أحدثته المعتزلة من الكلام في القدر وضرب الامثال لله . وقد ورد النهي عن الخوض في القدر . وفي صحيحي ابن حبان والحاكم عن ابن عباس مرفوعا « لا يزال أمر هذه الامة مواتيا ومقاربا ما لم يتكلموا في الولدان والقدر » وقد روي موقوفا ورجح بعضهم وقفه . وخرج البيهقي من حديث ابن مسعود مرفوعا « اذا ذكر أصحابي فأمسكوا واذا ذكر النجوم فأمسكوا » وقد روي من وجوه متعددة في أسانيدها مقال . وروي عن ابن عباس أنه قال لميمون ابن مهران إياك والنظر في النجوم فانها تدعو الى الكهانة والقدر فانه يدعو الى الزندقة وإياك وشتم أحد من أصحاب محمد ﷺ فيكبك الله في النار على وجهك . وخرجه أبو نعيم مرفوعا ولا يصح رفعه .

والنهي عن الخوض في القدر يكون على وجوه منها ضرب كتاب الله بعضه ببعض فينزع المثبت للقدر بآية والنافي له بأخرى . ويقع التجادل في ذلك . وهذا قد روي أنه وقع في عهد النبي ﷺ وأن النبي ﷺ غضب من ذلك ونهى عنه وهذا من جملة الاختلاف في القرآن والمراء فيه وقد نهي عن ذلك (٢)

(١) بدعة من محدثات الأمور التي تحول على الزائد على قدر الحاجة منها

(٢) وقد ورد في هذا الباب أحاديث كثيرة تقتضي النهي عن الجدال والمراء في القرآن وغيره نورد لك أهمها : روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ان أبغض الرجال الى الله الألد الخصم » ورواه النسائي والترمذي أيضا - والألد بتشديد الدال المهملة الشديد الخصومة . والخصم بكسر الصاد هو الذي يحج من يخاصمه . وروى

ومنها الخوض في القدر اثباتا ونفيا بالاقيسة العقلية . كقول القدرية لو قدر وقضى ثم عذب كان ظالما . وقول من خالفهم ان الله جبر العباد على أفعالهم ونحو ذلك .

ومنها الخوض في سر القدر . وقد ورد النهي عنه عن علي وغيره من السلف فان العباد لا يطلعون على حقيقة ذلك . ومن ذلك أعني محدثات الأمور ما أحدثه المعتزلة ومن حذا حذوهم من الكلام في ذات الله تعالى وصفاته بأدلة العقول وهو أشد خطرا من الكلام في القدر لأن الكلام في القدر كلام في أفعاله وهذا كلام في ذاته وصفاته .

وينقسم هؤلاء الى قسمين . أحدهما من نفى كثيرا مما ورد به الكتاب والسنة من ذلك لاستلزامه عنده التشبيه بالمخلوقين كقول المعتزلة لو رؤي

الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه الا أوتوا الجدل ثم قرأ (ما ضربوه لك الا جدلا) » وقال الترمذي حديث حسن صحيح ورواه أيضا ابن أبي الدنيا ورواه الطبراني في كبيره عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال كنا جلوسا عند باب رسول الله ﷺ نتذاكر ينزع هذا بآية وينزع هذا بآية فخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كأنما يفقأ في وجهه حب الرمان فقال « يا هؤلاء بهذا بعثتم أم بهذا أمرتم لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض » فالمؤمن لا يماري ولا يجادل بل يرجع الرشد ويجتنب الغي ويرد ما اختلف فيه وخفي عليه الى العالم به والراسخ في العلم . ولذلك ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما على ما رواه الطبراني أيضا في الكبير عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ان عيسى عليه السلام قال « انما الامور ثلاثة . أمر تبين لك رشده فاتبعه . وأمر تبين لك غيه فاجتنبه . وأمر اختلف فيه فرده الى عالم » قال الحافظ المنذري اسناده لا بأس به والله أعلم

لكان جسماً لأنه لايرى الا فى جهة . وقولهم لو كان له كلام يسمع لكان جسماً ووافقهم من نفى الاستواء (١) فنفوه لهذه الشبهة : وهذا طريق

(١) الاستواء المراد به هنا الوارد فى القرآن الكريم فى قوله تعالى (ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام ثم استوى على العرش) الآية . وقوله (تنزيلا ممن خلق الارض والسموات العلى الرحمن على العرش استوى) وقوله تعالى (ثم استوى الى السماء وهى دخان) وقوله (ثم استوى على العرش الرحمن) ولاشك ان من نفى الاستواء ليس مراده نفى الآيات القرآنية الواردة فى ذلك ولا الاحاديث النبوية المثبتة له بل غرضه نفى معنى الاستواء المعلوم لنا المشاهد بالخلوق المحس تنزيها للبارى تعالى عن المشابهة والمماثلة اخذاً بقوله تعالى (ليس كمثله شىء) المقتضى لنفى المثلية المطلقة العامة التى تستغرق جميع الافراد الجزئية الا ان فيه مخالفة لاصحاب النبى صلى الله عليه وآله وسلم ومن بعدهم ومبالغة وغلواً فى ذلك ولذلك يقولون فى تقرير نفى المثل (لا فوق ولاتحت ولا داخل ولاخارج ولا متصل ولا منفصل ولا أمام ولا خلف) الى غير ذلك مما يوهم ظاهره نفيه جل وعلا تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً وبهذا تمسك جماعة من سلف الامة وخلفها وردوا على من نفى الاستواء وظن ان النفى انما هو للآيات القرآنية والاحاديث النبوية وشنع عليه ونسبه الى الكفر والتبديع والفسق مغالياً فى الرد ومبالغاً فى التنفير عنه كما هو الشأن فى ذلك وخير الامور أوساطها وهو ما كان عليه السلف الصالح رضى الله تعالى عنهم وأرضاهم من إمرار آيات الصفات كلها وأحاديثها كما جاءت من غير تفسير لها ولاتكييف ولا تمثيل كما سيأتى بيانه فى كلام المؤلف رحمه الله تعالى بعد : وما أحسن جواب الامام مالك حين سئل عن الاستواء فقال الاستواء معلوم والكيف مجهول . والسؤال عنه بدعة . ولذلك لاينبغى اطالة الكلام فيه ولا الخوض فى معانيه . بل الوقوف مع السلف الصالح رضى الله عنهم .

المعتزلة والجهمية وقد اتفق السلف على تبديعهم وتضليلهم وقد سلك سبيلهم فى بعض الامور كثير ممن انتسب الى السنة والحديث من المتأخرين

والثانى من رام اثبات ذلك بأدلة العقول التى لم يرد بها الأثر ورد على أولئك مقالتهم كما هى طريقة مقاتل بن سليمان ومن تابعه كنوح ابن أبى مريم وتابعهم طائفة من المحدثين قديماً وحديثاً . وهو أيضاً مسلك الكرامية فمنهم من أثبت لاثبات هذه الصفات الجسم اما لفظاً . واما معنى . ومنهم من أثبت لله صفات لم يأت بها الكتاب والسنة كالحركة وغير ذلك مما هى عنده لازم الصفات الثابته .

وقد أنكر السلف على مقاتل قوله فى رده على جهم بأدلة العقل وبالغوا فى الطعن عليه . ومنهم من استحل قتله . منهم مكى بن ابراهيم شيخ البخارى وغيره .

والصواب ماعليه السلف الصالح من أمرار آيات الصفات وأحاديثها كما جاءت من غير تفسير لها ولا تكييف ولا تمثيل . ولا يصح من أحد منهم خلاف ذلك ألبتة خصوصاً الامام أحمد ولا خوض فى معانيها ولا ضرب مثل من الامثال لها : وان كان بعض من كان قريباً من زمن الامام أحمد فيهم من فعل شيئاً من ذلك اتباعاً لطريقة مقاتل فلا يقتدى به فى ذلك انما الاقتداء بائمة الاسلام كابن المبارك (١)

(١) هو الامام الحافظ العلامة فخر المجاهدين قدوة الزاهدين أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك الحنظلى صاحب التآليف النافعة والرحلات الشاسعة توفى سنة ١٨١ قال أبو إسحق إن المبارك امام المسلمين . وقال اسماعيل بن

ومالك . والثورى (١) والاوزاعي . والشافعي . وأحمد . واسحق

عاش ما على الأرض مثل ابن المبارك . وقال الامام أحمد بن حنبل لم يكن فى زمان ابن المبارك أكثر طلبا للعلم منه قال الحافظ أبو عبد الله الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ والله إنى لأحبه فى الله وأرجو الخير بحبه لما منحه الله من التقوى والعبادة والاخلاص والجهاد وسعة العلم والاتقان والمواساة والفتوة والصفات الحميدة ومناقبه وثناء الائمة عليه لا تحصى . ومن كلامه اذا غلبت محاسن الرجل على مساويه لم تذكر المساوى واذا غلبت المساوى على المحاسن لم تذكر المحاسن والله أعلم

(١) هو الامام شيخ الاسلام سيد الحفاظ أبو عبد الله الثورى الكوفى الفقيه المتوفى سنة ١٦١ قال يحيى بن معين وشعبة وجماعة فيه سفيان أمير المؤمنين فى الحديث وقال الامام احمد بن حنبل لم يتقدم الثورى فى قلبى أحد . وقال الاوزاعي لم يبق من تجتمع عليه الامة بالرضا والصحة الا سفيان . وقال ابن المبارك كتبت عن ألف ومائة شيخ مافيهم أفضل من سفيان وقال أيضا لا أعلم على وجه الأرض أعلم من سفيان . وقال القطان سفيان فوق مالك فى كل شيء وثناء الأئمة عليه كثير يحتاج الى تأليف ولذلك جمع الحافظ ابن الجوزى مناقب هذا الامام فى مجلد وقد اختصره العلامة الذهبي وذكره فى تاريخه . ومن كلامه : ما استودعت قلبى شيئا قط فخانني . وقال يحيى بن يمان سمعت سفيان يقول المال داء هذا الزمان والمرء دواؤه فاذا اجتمع الطلب المال البلاء الذى يساوى شيء . وقال الثورى رضى الله عنه أيضا وددت لو أنى نجوت من العلم لا على ولا لى وما من عمل انا أخوف على منه . وقال أبو اسامة سمعت سفيان يقول ليس طلب الحديث من عدة الموت لكنه علة يتشاغل بها الرجل . قال الحافظ أبو عبد الله الذهبي اذا كان علم الآثار مدخولا فما ظنك بعلم المنطق والجدل وحكمة الاوائل التى تسلب الايمان وتورث الشكوك والحيرة التى لم تكن والله من علم

وأبي عبيد . ونحوهم (١) .

وكل هؤلاء لا يوجد فى كلامهم شيء من جنس كلام المتكلمين فضلا عن كلام الفلاسفة . ولم يدخل ذلك فى كلام من سلم من قدح وجرح . وقد قال أبو زرعة الرازى كل من كان عنده علم فلم يصن علمه واحتاج فى نشره الى شيء من الكلام فلستم منه .

ومن ذلك أعنى محدثات العلوم ما أحدثه فقهاء أهل الرأى من ضوابط وقواعد عقلية ورد فروع الفقه اليها . وسواء أخالفت السنن أم وافقتها طردا لتلك القواعد المقررة وان كان أصلها مما تأولوه على نصوص الكتاب

الصحابة ولا التابعين ولا من علم الاوزاعي والثورى ومالك وأبي حنيفة وابن أبي ذئب وشعبة ولا والله عرفها ابن المبارك ولا أبو يوسف القائل من طلب العلم بالكلام تزندق ولا وكيع ولا ابن مهدى ولا ابن وهب ولا الشافعي ولا عفان ولا أبو عبيد ولا ابن المديني وأحمد وأبو ثور والمزنى والبخارى والاثرم ومسلم والنسائي وابن خزيمة وابن شريح وابن المنذر وأمثالهم بل كانت علومهم القرآن والحديث والفقه والنحو وشبه ذلك . قلت صدق الحافظ والله فيما قال مع أنه أدرك فى زمنه علماء محدثين عاملين بالكتاب والسنة بخلاف زماننا هذا فقد شغل علماءنا الوسائل وغلوا بها حتى ظن الكثير أنها المقصودة لذاتها وترك الاشتغال بالعلم النافع أعنى به علم القرآن والحديث والعمل بهما . اللهم اهد علماءنا ووفقهم لاحياء علم الكتاب والسنة والعمل بهما وجعلهما مقصودين لذاتيهما كما كان السلف الصالح رضى الله عنهم .

(١) من أئمة الاسلام صدور المجتهدين وسلف الأئمة أجمعين ومعظمهم من التابعين الآخذين عن الصحابة ومن لحق بعصرهم من المقتدين من خيار سلف الأئمة الصالحين رضى الله عنهم أجمعين

والسنة لكن بتأويلات يخالفهم غيرهم فيها . وهذا هو الذي أنكره أئمة الاسلام على من أنكروه من فقهاء أهل الرأي بالحجاز والعراق . وبالغوا في ذمه وأنكاره

فأما الائمة وفقهاء أهل الحديث فانهم يتبعون الحديث الصحيح حيث كان اذا كان معمولا به عند الصحابة . ومن بعدهم - أو عند طائفة منهم فأما ما اتفق على تركه فلا يجوز العمل به لانهم ما تركوه الا على علم انه لا يعمل به . قال عمر بن عبد العزيز خذوا من الرأي ما يوافق من كان قبلكم فانهم كانوا أعلم منكم .

فأما ما خالف عمل أهل المدينة من الحديث فهذا كان مالك يرى الاخذ بعمل أهل المدينة . (١) والاكثرون أخذوا بالحديث .

---

(١) قال العلامة الشوكانى بعد ما نقل الخلاف فيه وبين أن اجماع أهل المدينة ليس بحجة عند الجمهور . وقال القاضي عبد الوهاب اجماع أهل المدينة على ضربين نقل واستدلال فالاول على ثلاثة أضرب منه نقل شرع مبتدأ من جهة النبي صلى الله عليه وآله وسلم إما قول أو فعل أو اقرار فالاول كنقلهم الصاع والمد والاذان والاقامة والاوقات والاجناس ونحوه . والثاني نقلهم المتصل كعهدة الرقيق وغير ذلك كتركهم أخذ الزكاة من الخضروات مع انها كانت تزرع بالمدينة وكان النبي ﷺ والخلفاء بعده لا يأخذون منها قال وهذا النوع من اجماعهم حجة يلزم عندنا المصير اليه وترك الاخبار والمقاييس به لا اختلاف بين أصحابنا فيه قال والثاني وهو اجماعهم من طريق الاستدلال فاختلف اصحابنا فيه على ثلاثة أوجه : أحدها انه ليس باجماع ولا بمرجح وهو قول أبي بكر وأبي يعقوب الرازي والقاضي أبي بكر وابن فورك والطيالسي وأبي فرج والابهري وأنكر كونه مذهبا لمالك : ثانيها انه مرجح وبه قال بعض أصحاب

ومما أنكره أئمة السلف الجدال والخصام والمراء في مسائل الحلال والحرام أيضا ولم يكن ذلك طريقة أئمة الاسلام . وانما أحدث ذلك بعدهم كما أحدثه فقهاء العراقين في مسائل الخلاف بين الشافعية والحنفية وصنفوا كتب الخلاف ووسعوا البحث والجدال فيها . وكل ذلك محدث لا أصل له وصار ذلك عليهم حتى شغلهم ذلك عن العلم النافع .

وقد أنكر ذلك السلف وورد في الحديث المرفوع في السنن ما ضل قوم بعد هدى الا أوتوا الجدل ثم قرأ (ماضربوه لك الا جدلا بل هم قوم خصمون) وقال بعض السلف اذا أراد الله بعبد خيرا فتح له باب العمل وأغلق عنه باب الجدل . واذا أراد الله بعبد شرا أغلق عنه باب العمل وفتح له باب الجدل .

وقال مالك أدركت أهل هذه البلدة (١) وانهم ليكرهون هذا الاكثار (٢) الذي فيه الناس اليوم . يريد المسائل وكان يعيب كثرة الكلام

الشافعي : ثالثها انه حجة ولم يحرم خلافه . . وبما أوردناه يتبين لك ان ما ذهب اليه المالكية من أن عمل أهل المدينة حجة عند مالك وان خالف الحديث ليس على اطلاقه بل على تفصيل كما تقدم وكذلك قول شيخنا انه مرجح عند تعارض الاخبار غير ظاهر لمخالفته المنقول تدبر .

(١) يعني المدينة المنوره بالمصطفى ﷺ

(٢) واعلم ان الاكثار من الاسئلة مذموم والدليل عليه النقل المستفيض من الكتاب والسنة وكلام السلف الصالح قال العلامة الشاطبي من الدليل على ذلك قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم) الآية وفي الحديث . انه عليه الصلاة والسلام قرأ (ولله على الناس حج البيت) الآية فقال رجل يارسول الله أكل عام فاعرض ثم قال يا رسول الله أكل عام

والتقيا ويقول يتكلم أحدهم كأنه جمل محتلم يقول هو كذا هو كذا يهدر في كلامه وكان يكره الجواب في كثرة المسائل ويقول قال الله عز وجل (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي) فلم يأته في ذلك جواب وقيل له الرجل يكون عالما بالسنن يجادل عنها قال لا ولكن يخبر بالسنة فإن قبل منه وإلا سكت. وقال المراء والجدال في العلم يذهب بنور العلم وقال المراء في العلم يقسي القلب ويورث الضغن. وكان يقول في المسائل التي يسأل عنها كثيرا لا أدري. وكان الإمام أحمد يسلك سبيله في ذلك.

ثلاثا وفي كل ذلك يعرض وقال في الرابعة والذي نفسي بيده لو قلتها لوجبت ولو وجبت ما أطقتموها ولو لم تقوموا بها لكفرتم فذروني ما تركتكم. وفي مثل هذا نزلت (لا تسألوا عن أشياء) الآية. وكره عليه الصلاة والسلام المسائل وعابها ونهى عن كثرة السؤال. وكان عليه الصلاة والسلام يكره السؤال فيما لم ينزل فيه حكم وقال: إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ونهى عن أشياء فلا تنتهكوها وحد حدودا فلا تعتدوها وعفا عن أشياء رحمة بكم لا عن نسيان فلا تبحثوا عنها. وقال ابن عباس ما رأيت قوما خيرا من أصحاب محمد ﷺ ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قبض صلى الله عليه وآله وسلم كلهن في القرآن (ويسألونك عن المحيض) (ويسألونك عن اليتامى) (يسألونك عن الشهر الحرام) ما كانوا يسألون إلا عما ينفعهم. قال الشاطبي يعني أن هذا كان الغالب عليهم. وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (ذروني ما تركتكم فإنما هلك من قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم) ومثل ذلك قصة أصحاب البقرة قال ابن عباس لو ذبحوا بقرة ما لأجزأتهم ولكن شددوا فشدد الله عليهم حتى اشتروها بملء مسكها ذهبا فذبحوها وما كادوا يفعلون. وعن ابن عمر قال لا تسألوا عما لم يكن فإني سمعت عمر يلعن من سأل عما لم يكن. وللسلف في ذلك كلام كثير اقتصرنا على المهم منه خوف الإطالة وفيما ذكرنا كفاية لمن عقل واهتدى واتبع سبيلهم

وقد ورد النهي عن كثرة المسائل وعن أغلوطات المسائل (١) وعن المسائل قبل وقوع الحوادث وفي ذلك ما يطول ذكره. ومع هذا ففي كلام السلف والأئمة كمالك والشافعي وأحمد وإسحاق التنبيه على مآخذ الفقه ومدارك الأحكام بكلام وجيز مختصر يفهم به المقصود من غير إطالة ولا إسهاب. وفي كلامهم من رد الأقوال المخالفة للسنة بألطف إشارة وأحسن عبارة بحيث يغني ذلك من فهمه عن إطالة المتكلمين في ذلك بعدهم بل ربما لم يتضمن تطويل كلام من بعدهم من الصواب في ذلك ما تضمنه كلام السلف والأئمة مع اختصاره وإيجازه فما سكت من سكت من كثرة الخصام والجدال من سلف الأمة جهلا ولا عجزا ولكن سكتوا عن علم وخشية لله. وما تكلم من تكلم وتوسع من توسع بعدهم لاختصاصه بعلم دونهم ولكن حبا للكلام وقلة ورع كما قال الحسن وسمع قوما يتجادلون هؤلاء قوم ملوا العبادة وخف عليهم القول وقل ورعهم فتكلموا.

وقال مهدي بن ميمون سمعت محمد بن سيرين وماراه رجل ففطن له فقال إني أعلم ما تريد إني لو أردت أن أماريك كنت عالما بأبواب المراء. وفي رواية قال أنا أعلم بالمراء منك ولكني لا أماريك. وقال

---

(١) قال الخطابي يقال مسألة غلوط يغلط فيها كفرس ركوب وشاة حلوب فإذا جعلتها اسما زدت فيها هاء فقلت غلوطة كما يقال حلوبة وركوبة وأراد مسائل يغالط بها العلماء ليزلوا فيهيج بذلك شر وفتنة وإنما نهي عنها لأنها غير نافعة في الدين ولا تكاد تكون إلا فيما لا يقع. يعني أن السائل يأتي بمسائل يوقع بها المسئول عنها في الغلط لإشكال فيها فيمتحنه ليظهر فضل نفسه وقلة علم المسئول عنها. ومثله قول ابن مسعود أنذرتكم صعاب النطق قال الأوزاعي هي شرار المسائل.

ابراهيم النخعي ما خاصمت قط . وقال عبد الكريم الجوري ما خاصم ورع قط . وقال جعفر بن محمد اياكم والخصومات في الدين فانها تشغل القلب وتورث النفاق .

وكان عمر بن عبد العزيز يقول اذا سمعت المراء فاقصر . وقال من جعل دينه غرضا للخصومات أكثر التنقل . وقال ان السابقين عن علم وقفوا وببصر نافذ كفوا وكانوا هم أقوى على البحث لو بحثوا . وكلام السلف في هذا المعنى كثير جدا (١) .

---

(١) من ذلك ما نقل عن الامام مالك امام دار الهجرة قال موسى بن داود ما رأيت أحدا من العلماء أكثر من أن يقول لا أحسن من مالك . وقال مالك رضي الله عنه ما شيء أشد علي من أن أسأل عن مسألة من الحلال والحرام لأن هذا هو القطع في حكم الله ولقد أدركت أهل العلم والفقه ببلدنا وان أحدهم اذا سئل عن مسألة كأن الموت أشرف عليه . وقال رضي الله عنه ربما وردت علي المسألة تمنعني من الطعام والشراب والنوم فقيل له يا أبا عبد الله والله ما كلامك عند الناس الا نقر في حجر ما تقول شيئا الا تلقوه منك قال فمن أحق أن يكون هكذا . وكان اذا سئل عن المسألة قال للسائل انصرف حتى أنظر فيها فينصرف ويردد فيها فقيل له في ذلك فبكى وقال اني أخاف أن يكون لي من المسائل يوم وأي يوم . وكان رضي الله عنه اذا جلس نكس رأسه وحرك شفتيه يذكر الله ولم يلتفت يمينا ولا شمالا فاذا سئل عن مسألة تغير لونه وكان أحمر فيصفر وينكس رأسه ويحرك شفتيه ثم يقول ما شاء الله لا حول ولا قوة الا بالله فربما سئل عن خمسين مسألة فلا يجيب منها في واحدة وسئل في العراق عن أربعين مسألة فما أجاب منها الا في خمس . وسئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال في اثنتين وثلاثين منها لا أدري وكان اذا شك في الحديث طرحه كله وقال انما أنا بشر أخطىء وأصيب فانظروا رأيي فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوا به

وقد فتن كثير من المتأخرين بهذا فظنوا ان من كثر كلامه وجداله وخصامه في مسائل الدين فهو أعلم ممن ليس كذلك . وهذا جهل محض . وانظر الى أكابر الصحابة وعلمائهم كأبي بكر وعمر وعلي ومعاذ وابن مسعود وزيد بن ثابت كيف كانوا . كلامهم أقل من كلام ابن عباس وهم أعلم منه وكذلك كلام التابعين أكثر من كلام الصحابة والصحابة أعلم منهم . وكذلك تابعوا التابعين كلامهم أكثر من كلام التابعين والتابعون أعلم منهم . فليس العلم بكثرة الرواية ولا بكثرة المقال ولكنه نور يقذف في القلب يفهم به العبد الحق ويميز به بينه وبين الباطل ويعبر عن ذلك بعبارات وجيزة محصلة للمقاصد .

وقد كان النبي ﷺ أوتي جوامع الكلم واختصر له الكلام اختصاراً ولهذا ورد النهي عن كثرة الكلام والتوسع في القيل والقال (١) . وقد قال النبي ﷺ ان الله لم يبعث نبيا الا مبلغا وان تشقيق الكلام من الشيطان . يعني ان النبي ﷺ انما يتكلم بما يحصل به البلاغ . وأما كثرة القول وتشقيق الكلام فانه مذموم . وكانت خطب النبي ﷺ قصداً . وكان يحدث حديثا لو عده العاد لأحصاه . وقال ان من البيان سحراً .

وكل ما لم يوافق ذلك فاتركوه . وقال ليس كل ما قال الرجل وان كان فاضلا يتبع ويجعل سنة ويذهب به الى الامصار قال الله تعالى (فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) وهذا باب واسع نقتصر منه على ما ذكرنا وبالله التوفيق .

(١) قد روى البخاري ومسلم عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . قال (ان الله حرم عليكم عقوق الامهات ووأد البنات ومنعا وهات وكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال واضاعة المال) وفي مسلم (كفى بالمرء اثما أن يحدث بكل ما سمع) .

وإنما قاله في ذم ذلك لا مدحاً له كما ظن ذلك من ظنه . ومن تأمل سياق ألفاظ الحديث قطع بذلك (١) . وفي الترمذي وغيره عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً « ان الله ليبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة بلسانها » (٢) وفي المعنى أحاديث كثيرة مرفوعة وموقوفة على عمر

(١) ووجهه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قاله على ما رواه البخاري وغيره حين قدم عليه الزبرقان بن بدر التميمي وعمرو بن الأهتم التميمي في وجوه قومهما وساداتهم وأسلما سنة تسع من الهجرة فقال الزبرقان يا رسول الله أنا سيد تميم والمطاع فيهم والمجاب أمنعهم من الظلم وآخذ لهم بحقوقهم وهذا يعلم ذلك يعني عمراً . فقال عمرو : وإنه لشديد العارضة . مانع لجانبه مطاع في أدانيه فقال الزبرقان والله يا رسول الله لقد علم مني غير ما قال وما منعه أن يتكلم إلا الحسد قال عمرو أنا أحسدك فوالله يا رسول الله إنه للئيم الخال زمر المروءة ضيق العطن أحمق الوالد مضيع في العشيرة والله يا رسول الله لقد صدقت في الأولى وما كذبت في الأخرى ولكني رجل إذا رضيت قلت أحسن ما علمت وإذا غضبت قلت أقبح ما وجدت فقال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم (إن من البيان سحراً إن من البيان سحراً) وفي رواية (إن من البيان لسحراً) بلام التأكيد . قيل هذا ذم للبيان لأن السحر تمويه فكأنه قيل إن من البيان ما يموه الباطل حتى يشبه بالحق قال صاحب الأمثال وإنما شبه بالسحر لحدة عمله في سامعه وسرعة قبول القلب له وهو مثل يضرب في استحسان المنطق وإيراد الحجة البالغة وأول من نطق به النبي صلى الله عليه وآله وسلم والله أعلم .

(٢) هو الذي يتشدق في الكلام ويفخم به لسانه ويلفه كما تلف البقرة الكلأ بلسانها لفاً . شبه إدارة لسانه في الفم حال التكلم تفاصحاً بما تفعل البقرة بلسانها وهذا محمول على ما إذا فعل ذلك تكلفاً وقصداً . وأما من يخطب ويفصح من غير تكلف فلا يدخل فيه والله أعلم .

وسعد وابن مسعود وعائشة وغيرهم من الصحابة . فيجب أن يعتقد أنه ليس كل من كثر بسطه للقول وكلامه في العلم كان أعلم ممن ليس كذلك .

وقد ابتلينا بجهلة من الناس يعتقدون في بعض من توسع في القول من المتأخرين انه أعلم ممن تقدم . فمنهم من يظن في شخص انه أعلم من كل من تقدم من الصحابة ومن بعدهم لكثرة بيانه ومقاله . ومنهم من يقول هو أعلم من الفقهاء المشهورين المتبوعين . وهذا يلزم منه ما قبله لأن هؤلاء الفقهاء المشهورين المتبوعين أكثر قولاً ممن كان قبلهم فإذا كان من بعدهم أعلم منهم لاتساع قوله كان أعلم ممن كان أقل منهم قولاً بطريق الأولى . كالثوري والأوزاعي (١) . والليث (٢) وابن المبارك . وطبقتهم . وممن قبلهم من التابعين والصحابة أيضاً

(١) هو شيخ الإسلام وحجة الإمام أبو عمرو عبد الرحمن الدمشقي الحافظ المتوفى سنة ١٥٧ قال إسماعيل بن عياش سمعت الناس يقولون سنة أربع ومائة الأوزاعي اليوم عالم الأمة وقال الخزرجي كان الأوزاعي اليوم أفضل أهل زمانه وقال الحكم الأوزاعي إمام عصره عموماً وإمام أهل الشام خصوصاً ولقد كان أهل الشام ثم أهل الأندلس على مذهب الأوزاعي مدة من الدهر إلى أن فنى العارفون به ومناقبه لا تحصى وثناء الأئمة عليه يحتاج إلى تأليف فحدث عن البحر ولا حرج . ومن كلامه . عليك آثار السلف وإن رفضك الناس وإياك ورأى الرجال وإن زخرفوه بالقول فإن الأمر ينجلي وأنت على طريق مستقيم . وقال إذا بلغك عن رسول الله ﷺ حديث فإياك أن تقول غيره فإنه كان مبلغاً عن الله وكان يقول خمسة كان عليها الصحابة والتابعون لزوم الجماعة واتباع السنة . وعمارة المساجد والتلاوة والجهاد . وكان يقول ويل للمتفقهين بغير العبادة والمستحلين الحرمات بالشبهات .

(٢) هو الإمام القدوة والحافظ الفقيه المجتهد المطلق شيخ الديار المصرية

فإن هؤلاء كلهم أقل كلاماً ممن جاء بعدهم وهذا تنقص عظيم بالسلف الصالح وإساءة ظن بهم ونسبته لهم الى الجهل وقصور العلم ولا حول ولا قوة الا بالله ، ولقد صدق ابن مسعود فى قوله فى الصحابة انهم أبر الامة قلوباً ، وأعمقها علوما ، وأقلها تكلفاً ، (١) وروى نحوه عن ابن عمر أيضاً وفى هذا اشارة الى أن من بعدهم أقل علوماً وأكثر تكلفاً .

وعالما وربانيا أبو الحارث الليث بن سعد المتوفى سنة ١٧٥ . روى عبد الملك ابن يحيى بن بكير عن أبيه قال ما رأيت فيمن رأيت مثل الليث وما رأيت أحداً أكمل من الليث كان فقيه البلد عربى اللسان يحسن القرآن والنحو ويحفظ الشعر والحديث حسن المذاكرة الى أن عد خمس عشرة خصلة ما رأيت مثله . وقال الشافعى الليث أفقه من مالك الا أن أصحابه لم يقوموا به وفى رواية عن الشافعى ضيعه قومه وفى أخرى ضيعه أصحابه . وقال ابن أبى مريم ما رأيت أحداً من خلق الله أفضل من الليث وما كانت خصلة يتقرب بها الى الله الا كانت تلك الخصلة فى الليث . وقال ابن حبان كان الليث من سادات أهل زمانه فقها وعلما وحفظاً وفضلا وكرما . وقال النووى فى تهذيبه اجمعوا على جلالته وأمانته وعلو مرتبته فى الفقه والحديث ومناقبه كثيرة .

(١) وهناك بعض ماورد فى وصف الصحابة عن الأئمة الاعلام . روى عن الحسن وقد ذكر اصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال انهم أبر هذه الامة قلوبا وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً قوما اختارهم الله لصحبة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم فتشبهوا باخلاقهم وطرائقهم فانهم ورب الكعبة على الصراط المستقيم . وعن حذيفة أنه كان يقول اتقوا الله يامعشر القراء وخذوا طريق من قبلكم فلعمرى لئن اتبعتموه لقد سبقتم سبقاً بعيداً ولئن تركتموه يمينا وشمالا لقد ضللتم ضلالا

وقال ابن مسعود أيضاً انكم فى زمان كثير علماؤه قليل خطباؤه وسيأتى بعدكم زمان قليل علماؤه كثير خطباؤه فمن كثر علمه وقل قوله فهو الممدوح ومن كان بالعكس فهو مذموم . وقد شهد النبى ﷺ لأهل اليمن بالايمان (١) والفقه . وأهل اليمن أقل الناس كلاما وتوسعاً فى العلوم لكن علمهم علم نافع فى قلوبهم ويعبرون بألسنتهم عن القدر المحتاج اليه من ذلك . وهذا هو الفقه والعلم النافع . فأفضل العلوم فى تفسير القرآن ومعانى الحديث والكلام فى الحلال والحرام ما كان مأثوراً عن الصحابة (٢) والتابعين وتابعيهم الى أن ينتهى الى أئمة الاسلام المشهورين المقتدى بهم الذين سماهم فيما سبق .

بعيداً . وعن عمر بن عبد العزيز قال سن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وولاة الامر بعده سننا الاخذ بها تصديق لكتاب الله واستكمال لطاعة الله وقوة على دين الله من عمل بها مهتد ومن انتصر بها منصور ومن خالفها اتبع غير سبيل المؤمنين وولاه الله ماتولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرا . وفى رواية عنه بعد قوله وقوة على دين الله ليس لاحد تغييرها ولا تبديلها ولا النظر فى رأى خالفها من اهتدى بها الخ الحديث . وعن ابن مسعود قال من كان منكم متأسياً فليتأس بأصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم فانهم كانوا أبر هذه الامة قلوبا وأعمقها علوماً وأقلها تكلفاً وأقومها هديا وأحسنها حالا قوما اختارهم الله لصحبة نبيه واقامة دينه فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم فى آثارهم فانهم كانوا على الهدى المستقيم .

(١) إشارة لقوله ﷺ فى حق أهل اليمن الايمان يمان والحكمة يمانيه

(٢) لان عملهم سنة يقتدى بها ويرجع اليها قال الشاطبى فى كتابه الموافقات سنة الصحابة رضى الله عنهم سنة يعمل عليها ويرجع اليها ومن الدليل على ذلك أمور

فضبط ما روى عنه فى ذلك أفضل العلوم مع تفهمه وتعقله والتفقه فيه وما حدث بعدهم من التوسع لا خير فى كثير منه الا أن يكون شرحا لكلام يتعلق من كلامهم وأما ما كان مخالفا لكلامهم فأكثره باطل أو لا منفعة فيه . وفى كلامهم فى ذلك كفاية وزيادة فلا يوجد فى كلام من بعدهم من حق الا وهو فى كلامهم موجود بأوجز لفظ وأخصر عبارة ولا يوجد فى كلام من بعدهم من باطل الا وفى كلامهم ما يبين بطلانه لمن فهمه وتأمله ويوجد فى كلامهم من المعانى البديعة والمآخذ الدقيقة ما لا يهتدى اليه من بعدهم ولا يلم به .

(أحدها) ثناء الله عليهم من غير مثنوية (أى استثناء) ومدحهم بالعدالة وما يرجع اليها كقوله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس) وقوله (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) ففى الأولى اثبات الأفضلية على سائر الأمم وذلك يقتضى استقامتهم فى كل حال وجريان أحوالهم على الموافقة دون المخالفة ؛ وفى الثانية اثبات العدالة مطلقا وذلك يدل على ما دلت عليه الأولى .

(الثانى) ما جاء فى الحديث من الأمر باتباعهم وان سنتهم فى طلب الاتباع كسنة النبى صلى الله عليه وآله وسلم كقوله . فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ . وقوله . تفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار الا واحدة قالوا ومن هم يا رسول الله قال ما أنا عليه وأصحابى .

(الثالث) أن جمهور العلماء قدموا الصحابة عند ترجيح الأقوال فقد جعل طائفة قول أبى بكر وعمر حجة ودليلا وبعضهم عد قول الخلفاء الأربعة دليلا وبعضهم يعد قول الصحابة على الاطلاق حجة ودليلا ولهذه الآراء وأن ترجح عند العلماء خلافها فيها تقوية تضاف الى أمر كلى هو المقصود فى المسألة وذلك

فمن لم يأخذ العلم من كلامهم فاته ذلك الخير كله مع ما يقع فى كثير من الباطل متابعة لمن تأخر عنهم . ويحتاج من أراد جمع كلامهم الى معرفة صحيحه من سقيمه وذلك بمعرفة الجرح والتعديل والعلل فمن لم يعرف ذلك فهو غير واثق بما ينقله (١) من ذلك ويلتبس عليه حقه بباطله . ولا يثق

أن السلف والخلف من التابعين ومن بعدهم يهابون مخالفة الصحابة ويتكثرون بموافقتهم وأكثر ما تجد هذا المعنى فى علوم الخلاف الدائر بين الأئمة المعتبرين فتجدهم اذا عينوا مذاهبهم قووها بذكر من ذهب اليها من الصحابة وما ذلك الا لما اعتقدوا فى أنفسهم وفى مخالفيهم من تعظيمهم وقوة مآخذهم دون غيرهم وكبر شأنهم فى الشريعة وأنهم مما يجب متابعتهم وتقليدهم فضلا عن النظر معهم فيما نظروا فيه . وقد نقل عن الشافعى ان المجتهد قبل أن يجتهد لا يمنع من تقليد الصحابة ويمنع فى غيره

(الرابع) ما جاء فى الأحاديث من ايجاب محبتهم ، وذم من أبغضهم وأن من أحبهم فقد أحب النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، ومن أبغضهم فقد أبغض النبى عليه الصلاة والسلام وما ذلك من جهة كونهم رأوه أو جاوروه أو حاوروه فقط اذ لا مزية فى ذلك وانما هو لشدة متابعتهم له وأخذهم أنفسهم بالعمل على سنته مع حمايته ونصرته . ومن كان بهذه المثابة حقيق أن يتخذ قدوة وتجعل سيرته قبلة ائتى المقصود منه ببعض تصرف .

(١) وأيضا غير موثوق به لأنه حكم على الشىء وقضاء فيه ولا يصح الا بعد تصور المحكوم عليه والاحاطة بلوازمه الخاصة به . ومن كان متكلما فلا يعتد بحكمه ولذلك لا يجوز أن يسأل عن شىء فى أحكام الدين فانه لا ثقة به ولا اعتبار بجوابه فى الشريعة المطهرة . قال العلامة أبو اسحاق لا يصح للسائل ان يسأل من لا يعتبر فى الشريعة جوابه لانه اسناد أمر الى غير أهله والاجماع على عدم صحة مثل هذا بل لا يمكن فى الواقع لأن السائل يقول لمن ليس بأهل لما سئل عنه أخبرنى

عما عنده من ذلك كما يرى من قل علمه بذلك لا يثق عما يروى عن النبي ﷺ ولا عن السلف لجهله بصحيحه من سقيمه فهو لجهله يجوز أن يكون كله باطلا لعدم معرفته بما يعرف به صحيح ذلك وسقيمه (١).

قال الاوزاعي العلم ما جاء به أصحاب محمد ﷺ فما كان غير ذلك فليس بعلم . وكذا قال الامام احمد وقال في التابعين أنت مخير يعني مخيرا في كتابته وتركه . وقد كان الزهري يكتب ذلك وخالفه صالح بن كيسان ثم ندم على تركه كلام التابعين .

وفي زماننا يتعين كتابة كلام أئمة السلف المقتدى بهم الى زمن الشافعي واحمد وإسحاق وأبي عبيد . وليكن الانسان على حذر مما حدث بعدهم فانه حدث بعدهم حوادث كثيرة وحدث من انتسب الى متابعة السنة والحديث من الظاهرية ونحوهم وهو أشد مخالفة لها لشذوذه عن الائمة وانفراده عنهم بفهم يفهمه أو يأخذ مالم يأخذ به الائمة من قبله .

فأما الدخول مع ذلك في كلام المتكلمين أو الفلاسفة فشر محض وقل من دخل في شيء من ذلك إلا وتلطخ ببعض أوضارهم كما قال أحمد

عما لا يدري وأنا أشد أمري لك فيما تحي بالجهل به على سواء ومثل هذا لا يدخل في زمرة العقلاء اذ لو قال له دلني في هذه المفازة على الطريق الى الموضع الفلاني وقد علم أنهما في الجهل بالطريق سواء لعد في زمرة المجانين فالطريق الشرعي أولى لانه هلاك أخروي وذلك هلاك دنيوي خاصة . هدانا الله واياك الى تصور الاحكام على حقيقتها والاحاطة بكنهها .

(١) الى معرفة صحيحه من سقيمه يتيسر بذلك الى طلب معرفة مايوصل الناظر في الحديث مثلا الى معرفة الحسن في الضعيف وكذلك العلوم التي يسمونها الآلات وهكذا ولكن بقدر الحاجة .

لا يخلو من نظر في الكلام من أن يتجهم . وكان هو وغيره من أئمة السلف يحذرون من أهل الكلام (١) وان ذبوا عن السنة . وأما ما يوجد في كلام من أحب الكلام المحدث واتبع أهله من ذم من لا يتوسع في الخصومات والجدال ونسبته الى الجهل أو الى الحشو أو الى أنه غير عارف بالله أو غير عارف بدينه فكل ذلك من خطوات الشيطان نعوذ بالله منه .

(١) قال الحافظ ابن الجوزي وكيف لا يذم الكلام وقد أفضى الى أنهم قالوا ان الله عزوجل يعلم جمل الاشياء ولا يعلم تفاصيلها وقال جهم بن صفوان علم الله وقدرته وحياته محدثة وقال أبو محمد النوبختي عن جهم أنه قال الله عزوجل ليس بشيء . وقال أبو علي الجبائي وأبو هاشم ومن تابعهما من البصريين المعدوم شيء وذات ونفس وجوهر وعرض . وقد أطنب في ذلك ونقل معتقداتهم . ولذلك ذم علماء السنة علم الكلام وبالغوا في التنفير عنه . قال الشافعي رضي الله عنه لان يبتلي العبد بكل ما نهى الله عنه ما عدا الشرك خير له من أن ينظر في الكلام . وقال اذا سمعت الرجل يقول الاسم هو المسمى أو غير المسمى فاشهد أنه من أهل الكلام ولا دين له . وقال أيضا : حكمي في علماء الكلام أن يضربوا بالجريد ويطاف بهم في العشائر والقبائل ويقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ في الكلام . ولذلك قال الامام أحمد بن حنبل رحمه الله لا يفلح صاحب كلام أبدا . علماء الكلام زنادقة . ولا تجد متكلما الا ورجع آخر عمره عن علم الكلام وتاب وندم ونهى عن الاشتغال به . كان الوليد بن ابان الكرابيسي أعلم أهل زمانه في علم الكلام ومباحثه فلما حضرته الوفاة قال لبنيه تعلمون أحدا أعلم بالكلام مني قالوا لا قال فتتهموني قالوا لا قال فاني أوصيكم أتقبلون قالوا نعم قال عليكم بما عليه أصحاب الحديث فاني رأيت الحق معهم . وهذا امام الحرمين أبو المعالي الجويني الشافعي امام عصره كان يقول خلوا أهل الاسلام

وعما أحدث من العلوم الكلام فى العلوم الباطنة (١) من المعارف وأعمال القلوب وتوابع ذلك بمجرد الرأى والذوق أو الكشف وفيه خطر عظيم. وقد أنكره أعيان الأئمة كالامام احمد وغيره. وكان أبو سليمان يقول انه لتمر بى النكتة من نكت القوم فلا أقبلها الا بشاهدين عدلين الكتاب والسنة

وقال الجنيد علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة من لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدى به فى علمنا هذا. وقد اتسع الخرق فى هذا الباب ودخل فيه قوم الى أنواع الزندقة والنفاق ودعوى ان أولياء الله أفضل من الانبياء. أو انهم مستغنون عنهم والى التنقص بما جاءت به الرسل من الشرائع. والى دعوى الحلول والاتحاد أو القول بوحدة الوجود. وغير ذلك من أصول الكفر والفسوق والعصيان كدعوى

جولة فى علومهم. وركبت البحر الاعظم وغصت فى الذى نهوا عنه كل ذلك فى طلب الحق وهربا من التقليد وأما الآن فقد رجعت عن الكل الى كلمة الحق عليكم بدين العجائز فان لم يدركنى الحق بلطيف بره فأموت على دين العجائز ويختم عاقبة امرى عند الرحيل بكلمة الاخلاص فالويل لابن الجوينى. وكان يقول لاصحابه يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام فلو عرفت أن الكلام يبلغ بى ما بلغ ما تشاغلت به. وللامام فخر الدين الرازى ولغيره كلام كثير فى ذم علم الكلام وأهله أعرضنا عنه لضيق المقام. تنبه والله المستعان.

(١) يعنى به المسمى بالتصوف وصحيحه ما كان بذوق أهل الخصوص الذين أطلعهم الله بمحض كرمه على ما لم يطلع عليه غيرهم من أهل الظاهر وبعضهم يسميه علم الباطن ومن ذلك قصة الخضر مع سيدنا موسى صلوات الله وسلامه عليه وعلى نبينا وسائر المقربين آمين.

الاباحة. وحل محظورات الشرائع. وأدخلوا فى هذا الطريق أشياء كثيرة ليست من الدين فى شىء. فبعضها زعموا أنه يحصل به ترقيق القلوب كالغناء والرقص. (١) وبعضها زعموا أنه يراد لرياضة النفوس لعشق الصور المحرمة ونظرها. وبعضها زعموا أنه لكسر النفوس والتواضع كشهرة اللباس وغير ذلك مما لم تأت به الشريعة. وبعضه يصد عن ذكر الله وعن الصلاة كالغناء والنظر الى المحرم. وشابهوا بذلك الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً.

فالعلم النافع من هذه العلوم كلها ضبط نصوص الكتاب والسنة وفهم معانيها والتقيد فى ذلك بالمأثور عن الصحابة والتابعين وتابعيهم فى معانى القرآن والحديث. وفيما ورد عنهم من الكلام فى مسائل الحلال والحرام والزهد. والرقائق. والمعارف. وغير ذلك والاجتهاد على تمييز صحيحه

(١) قال الحافظ ابن الجوزى ولما يئس ابليس أن يسمع من المتعبدين شيئاً من الاصوات المحرمة كالعود نظر الى المعنى الحاصل بالعود فدرجه فى ضمن الغناء بغير العود وحسنه لهم وانما مراده التدريج من شىء الى شىء والفقيه من نظر فى الأسباب والنتائج وتأمل المقاصد.

واعلم أن سماع الغناء يجمع شيئين: أحدهما أنه يلهى القلب عن التفكر فى عظمة الله سبحانه والقيام بخدمته. والثانى أنه يميل الى اللذات العاجلة التى تدعو الى استيفائها من جميع الشهوات الحسية ومعظمها النكاح وليس تمام لذته إلا فى المتجددات ولا سبيل الى كثرة المتجددات فى الحل فلذلك يحث على الزنا فبين الغناء والزنا تناسب من جهة أن الغناء لذة الروح والزنا أكبر لذات النفس. ولهذا جاء فى الحديث (الغناء رقية الزنا) قلت وهو أثر لأنه من قول عبد الله ابن مسعود.

من سقيمه أولاً ، ثم الاجتهاد على الوقوف في معانيه وتفهمه ثانياً . وفي ذلك كفاية لمن عقل ، وشغل لمن بالعلم النافع عني واشتغل .

ومن وقف على هذا وأخلص القصد فيه لوجه الله عز وجل واستعان عليه أعانه وهداه ووفقه وسدده وفهمه وألهمه . وحينئذ يثمر له هذا العلم ثمرته الخاصة به وهي خشية الله كما قال عز وجل (إنما يخشى الله من عباده العلماء) قال ابن مسعود وغيره كفى بخشية الله علماً وكفى بالاغترار بالله جهلاً . وقال بعض السلف ليس العلم بكثرة الرواية ولكن العلم الخشية . وقال بعضهم من خشي الله فهو عالم ومن عصاه فهو جاهل . وكلامهم في هذا المعنى كثير جداً (١) .

(١) من ذلك ما روى عن ابن مسعود إني لأحسب الرجل ينسى العلم بالخطيئة يعملها وأن العالم من يخشى الله وتلا قوله تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) . وعن أبي بن كعب . قال تعلموا العلم واعملوا به ولا تتعلموه لتتجملوا به فإنه يوشك إن طال بكم زمان أن يتجمل بالعلم كما يتجمل الرجل بثوبه . وقال الحسن الذي يفوق الناس في العلم جدير أن يفوقهم في العمل . وقال فضيل بن عياض قال لي ابن المبارك أكثركم علماً ينبغي أن يكون أكثركم خوفاً . وقال أيوب السختياني قال لي أبو قلابة يا أيوب إذا أحدث الله لك علماً فأحدث له عبادة ولا يكن همك أن تحدث به . وقال ابن وهب عن مالك أنه سمعه يقول إن حقاً على من طلب الحديث أن يكون له وقار وسكينة وخشية وأن يكون متبعاً لآثار من مضى قبله . وفي الباب من هذا كثير لأن العلوم الشرعية إنما طلبها الشارع من حيث هي وسيلة إلى التعبد بها لله تعالى لا من جهة أخرى والدليل على ذلك من وجوه : أحدها أن المسائل التي لا ينبني عليها عمل فالخوض فيها خوض فيما لم يدل على استحسانه دليل شرعي لذلك أعرض الشارع عما قصده السائل

وسبب ذلك أن هذا العلم النافع يدل على أمرين . أحدهما على معرفة الله وما يستحقه من الأسماء الحسنى والصفات العلى والأفعال الباهرة . وذلك يستلزم إجلاله وإعظامه وخشيته ومهابته ومحبته ورجاءه والتوكل عليه والرضى بقضائه والصبر على بلائه . والأمر الثاني المعرفة بما يحبه ويرضاه وما يكرهه ويسخطه من الاعتقادات والأعمال الظاهرة والباطنة والأقوال فيوجب ذلك لمن علمه المسارعة إلى ما فيه محبة الله ورضاه والتباعد عما يكرهه ويسخطه . فإذا أثمر العلم لصاحبه هذا فهو علم

من السؤال عن الهلال لم يبدو رقيقاً في أول الشهر كالخيط ثم يمتلئ حتى يصير بدراً ثم يعود إلى حالته الأولى بما لا يفيد عملاً مكلفاً به وبين أن السؤال إنما يكون فيما يترتب عليه فائدة عمل فقال (يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج) ومن ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم للسائل عن الساعة (ما أعددت لها) إعراضاً عن صريح سؤاله إلى ما يتعلق بها مما فيه فائدة ولم يجبه عما سأل عنه . ثانيها أن الشرع إنما جاء بالتعبد لأنه المقصود من بعثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يدل له قوله تعالى (يا أيها الناس اتقوا ربكم) وقوله تعالى (كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور) وقوله (ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات) . ثالثها ما جاء من الآيات والأحاديث الدالة على أن روح العلم هو العمل وإلا فالعلم غير منتفع به وعارية . من ذلك قوله تعالى (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون) وقوله تعالى (وإنه لذو علم لما علمناه) قال قتادة يعني لذو عمل بما علمناه وقوله صلى الله عليه وآله وسلم (لا تزول قدما العبد يوم القيامة حتى يسأل عن خمس خصال وذكر فيها وعن علمه ماذا عمل فيه) .

وقال سفيان الثوري إنما يتعلم العلم ليتقى به الله . وإنما فضل العلم على غيره لأنه يتقى الله به . وغير ذلك مما لا يسعه المقام والله أعلم .

ينفع فمتى كان العلم نافعاً ووقر فى القلب فقد خشع القلب لله وانكسر له وذل هيبة وإجلالا وخشية ومحبة وتعظيما . ومتى خشع القلب لله وذل وانكسر له قنعت النفس بيسير الحلال من الدنيا وشبعت به فأوجب لها ذلك القناعة والزهد فى الدنيا . وكل ما هو فان لا يبقى من المال والجاه وفضول العيش الذى ينقص به حظ صاحبه عند الله من نعيم الآخرة وإن كان كريماً على الله . كما قال ذلك ابن عمر وغيره من السلف وروى مرفوعا . وأوجب ذلك أن يكون بين العبد وبين ربه عز وجل معرفة خاصة . فإن سأله أعطاه وإن دعاه أجابه كما قال فى الحديث الالهي «ولا يزال عبدى يتقرب الي بالنوافل حتى أحبه الى قوله فلئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه» (١) وفى رواية «ولئن دعانى لأجيبنه» . وفى وصيته ﷺ لابن عباس «احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده أمامك تعرف الى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة» .

---

(١) والحديث رواه البخارى عن أبى هريرة بلفظ قال قال رسول الله ﷺ ان الله قال من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب الي عبدى بشيء أحب الي مما افترضت عليه وما يزال عبدى يتقرب الي بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها . وان سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته)

قال الحافظ ابن رجب فى شرح خمسين حديثاً وقد روى هذا الحديث من وجوه أخر لا تخلو كلها عن مقال

قال المؤلف والمراد من هذا أن من اجتهد بالتقرب الى الله تعالى بالفرائض أولا ثم بالنوافل ثانيا قربه اليه ورقاه من درجة الايمان الى درجة الاحسان

فالشأن فى أن العبد يكون بينه وبين ربه معرفة خاصة بقلبه بحيث يجده قريباً منه يستأنس به فى خلوته ويجد حلاوة ذكره ودعائه ومناجاته وخدمته . ولا يجد ذلك إلا من أطاعه فى سره وعلانيته . كما قيل لوهيب ابن الورد يجد حلاوة الطاعة من عصى قال لا ولا من هم . ومتى وجد العبد هذا فقد عرف ربه وصار بينه وبينه معرفة خاصة . فاذا سأله أعطاه واذا دعاه أجابه كما قالت شعوانة للفضيل .

والعبد لا يزال يقع فى شدائد وكرب فى الدنيا . وفى البرزخ . وفى الموقف فاذا كان بينه وبين ربه معرفة خاصة كفاه الله ذلك كله وهذا هو المشار اليه فى وصية ابن عباس بقوله ﷺ «تعرف الى الله فى الرخاء

فصير يعبد الله على الحضور والمراقبة كأنه يراه فيمتلئ قلبه بمعرفة الله تعالى ومحبته وعظمته وخوفه ومهابته وإجلاله والأنس به والشوق اليه حتى يصير هذا الذى فى قلبه من المعرفة مشاهداً له بعين البصيرة كما قيل

ساكن فى القلب يعمره ... لست أنساه فأذكره
غاب عن سمعى وعن بصرى ... فسويدا القلب تبصره

قال الفضيل بن عياض ان الله تعالى يقول كذب من ادعى محبتى ونام عنى أليس كل محب يحب خلوة حبيبه ها أنا مطلع على أحبابى وقد مثلونى بين أعينهم وخاطبونى على المشاهدة وكلمونى بحضور غداً أقر أعينهم فى جنانى . ولا يزال هذا الذى فى قلوب المحبين المقربين يقوى حتى تمتلئ قلوبهم به فلا يبقى فى قلوبهم غيره ولا تستطيع جوارحهم أن تنبعث الا بموافقة ما فى قلوبهم ومن كان حاله هذا قيل فيه ما بقى فى قلبه الا الله . والمراد معرفته ومحبته وذكره فحينئذ لا ينطق العبد الا بذكره ولا يتحرك الا بأمره ولا يعمل الا بالسنة ولا يشتغل الا بعلم الكتاب والحديث فان نطق نطق بالله وان سمع سمع به وان نظر نظر به وان

يحرقك في الشدة، وقيل لمعروف ما الذي هيجك الى الانقطاع وذكر له الموت والقبر والموقف والجنة والنار. فقال ان ملكا هذا كله بيده كانت بينك وبينه معرفة كفاك هذا كله. فالعلم النافع ما عرف بين العبد وربه ودل عليه حتى عرف ربه ووحده وأنس به واستحى من قربه. وعبده كأنه يراه.

وهذا قالت طائفة من الصحابة إن أول علم يرفع من الناس الخشوع. وقال ابن مسعود إن أقواماً يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم ولكن اذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع. وقال الحسن العلم علمان فعلم على اللسان فذاك حجة الله على ابن آدم. وعلم في القلب فذاك العلم النافع. وكان السلف يقولون ان العلماء ثلاثة. عالم بالله عالم بأمر الله. وعالم بالله ليس بعالم بأمره. وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله وأكملهم الأول وهو الذي يخشى الله ويعرف أحكامه.

والشأن كله في أن العبد يستدل بالعلم على ربه فيعرفه فاذا عرف ربه

بطش يبطش به فهذا هو المراد بقوله كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به. ومن أشار الى غير هذا فانما يشير الى الالحاد من الحلول والاتحاد. والله ورسوله بريئان منه. وقوله ولئن سألني لأعطينه الخ يعني أن هذا المحبوب المقرب له عند الله منزلة خاصة تقتضي انه اذا سأل الله شيئا أعطاه اياه. واذا استعاذ به من شيء أعاذه منه وان دعاه أجابه فيصير مجاب الدعوة لكرامته على الله تعالى. ولذلك كان كثير من السلف معروفا باجابة الدعوة منهم البراء بن مالك. والنعمان بن قوقل وأويس القرني وغيرهم نفعنا الله بهم ووهبنا العلم والعمل.

قد وجده منه قريباً (١) ومتى وجده منه قريباً قربه اليه وأجاب دعاءه كما في الأثر الاسرائيلي، ابن آدم اطلبني تجدني فان وجدتني وجدت كل شيء، وان فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب اليك من كل شيء، وكان ذو النون يردد هذه الأبيات بالليل

اطلبوا لأنفسكم مثل ما وجدت أنا
قد وجدت لي سكنا ليس في هواه عنا
ان بعدت قربني أو قربت منه دنا

وكان الامام أحمد رحمه الله يقول أصل العلم خشية الله (٢) فأصل العلم العلم بالله الذي يوجب خشيته ومحبته والقرب

---

(١) لأن السالك الى ربه لا تزال همته عاكفة على استفراغ القلب وصدق الحب. وبذل الجهد في امتثال الامر الناشئين عن المعرفة فلا يزال كذلك حتى يبدو على سره شواهد معرفته وآثار صفاته وأسمائه. ولا تزال تلك الشواهد تكرر وتتزايد حتى تستقر ويصبغ بها قلبه حتى تحصل له منزلة قوله تعالى في الحديث القدسي (كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به) فعلى طالب الآخرة ان يشد مئزر الجد في طلب محبة حبيبه له بأنواع التقرب اليه. فيشغل لسانه بالذكر وتلاوة كلام حبيبه. وقلبه بالخوف والرجاء، والانابة والتوكل وجوارحه بالطاعات.

(٢) ويحث عليها التفكر في الموجودات التي هيأها الله للأبصار والبصائر والاشتغال بما يقرب اليه جل وعلا عملا بقوله تعالى في حق من أحسن عمله (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون وفي أموالهم حق للسائل والمحروم وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون)

منه والأنس به والشوق إليه . ثم يتلوه العلم بأحكام الله (١) وما يحبه ويرضاه من العبد من قول أو عمل أو حال أو اعتقاد . فمن تحقق بهذين العلمين كان علمه علماً نافعاً وحصل له العلم النافع والقلب الخاشع والنفس القانعة والدعاء المسموع .

ومن فاته هذا العلم النافع وقع في الأربع التي استعاذ منها النبي ﷺ وصار علمه وبالاً وحجة عليه فلم ينتفع به لأنه لم يخشع قلبه لربه . ولم تشبع نفسه من الدنيا بل ازداد عليها حرصاً ولها طلباً . ولم يسمع دعاؤه لعدم امتثاله لأوامر ربه . وعدم اجتنابه لما يسخطه ويكرهه .

هذا إن كان علمه علماً يمكن الانتفاع به وهو المتلقى عن الكتاب والسنة . فإن كان متلقى من غير ذلك فهو غير نافع في نفسه ولا يمكن الانتفاع به بل ضره أكثر من نفعه . وعلامة هذا العلم الذي لا ينفع أن يكسب صاحبه الزهو والفخر والخيلاء وطلب العلو والرفعة في الدنيا والمنافسة فيها . وطلب مباهاة العلماء ومماراة السفهاء وصرف وجوه الناس إليه . وقد ورد عن النبي ﷺ « إن من طلب العلم لذلك فالنار النار » (٢) وربما ادعى بعض أصحاب هذه العلوم معرفة الله وطلبه

(١) أحكام الله المراد بها التكليفات من مأمور به ومنهي عنه وعلم الفقه كفيل بها المستمد من الكتاب العزيز والسنة الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

(٢) هذا الحديث رواه الحافظ أبو عمر بن عبد البر عن جابر رضي الله عنه بلفظ قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولا لتماروا به السفهاء ولا لتخيروا به المجالس فمن فعل ذلك فالنار النار » وفي الباب أحاديث كثيرة منها ما رواه الحافظ بن عبد البر أيضاً عن أبي الدرداء

والإعراض عما سواه وليس غرضهم بذلك إلا طلب التقدم في قلوب الناس من الملوك وغيرهم وإحسان ظنهم بهم وكثرة أتباعهم . والتعظم بذلك على الناس .

وعلامة ذلك إظهار دعوى الولاية كما كان يدعيه أهل الكتاب . وكما ادعاه القرامطة والباطنية ونحوهم . وهذا بخلاف ما كان عليه السلف من احتقار نفوسهم وازدرائها باطناً وظاهراً (١) وقال عمرو بن

قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنزل الله في بعض الكتب أو أوحى إلى بعض الأنبياء قل للذين يتفقهون لغير الدين ويتعلمون لغير العمل ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة يلبسون للناس مسوك الكباش وقلوبهم كقلوب الذئاب ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمر من الصبر إياي يخادعون وبي يستهزئون لأتيحن لهم فتنة تذر الحليم فيهم حيران . ومن كلام السلف في ذلك ما روي عن الأسود عن عبد الله بن مسعود أنه قال لو أن أهل العلم صانوا علمهم ووضعوه عند أهله لسادوا به أهل زمانهم ولكنهم بذلوه لأهل الدنيا لينالوا به من دنياهم فهانوا على أهلها سمعت نبيكم صلى الله عليه وآله وسلم يقول من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله هم آخرته ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أوديتها وقع . وعن يزيد بن قوذر قال يوشك أن ترى رجالاً يطلبون العلم فيتغايرون عليه كما يتغاير الفساق على المرأة هو حظهم منه وعن سيار عن عائذ الله قال الذي يبتغي الأحاديث ليحدث بها لا يجد ريح الجنة . وقال مكحول من طلب الحديث ليماري به السفهاء أو ليباهي به العلماء أو ليصرف به وجوه الناس فهو في النار ، وقال سفيان الثوري زين علمك بنفسك ولا تزين نفسك بعلمك والله أعلم .

(١) أي قال ذلك تحكماً على الله وادعاء أنه يعلم العاقبة غروراً بنفسه أعوذ بالله من مكائد الغرور آمين .

قال انه عالم فهو جاهل ومن قال انه مؤمن فهو كافر ومن قال هو فى الجنة فهو فى النار .

ومن علامات ذلك عدم قبول الحق والانقياد اليه والتكبر على من يقول الحق خصوصاً ان كان دونهم فى أعين الناس . والاصرار على الباطل خشية تفرق قلوب الناس عنهم باظهار الرجوع الى الحق وربما أظهروا بألسنتهم ذم أنفسهم واحتقارها على رؤوس الاشهاد ليعتقد الناس فيهم انهم عند أنفسهم متواضعون فيمدحون بذلك وهو من دقائق أبواب الرياء كما نبه عليه التابعون فمن بعدهم من العلماء ويظهر منهم من قبول المدح واستحلائه ما ينافى الصدق والاخلاص فان الصادق يخاف النفاق على نفسه ويخشى على نفسه من سوء الخاتمة فهو فى شغل شاغل عن قبول المدح واستحسانه (١) .

(١) قال العلامة شهاب الدين المعروف بابن أبى شامة كان العلماء من السلف الصالح أهل نسك وعبادة وورع وزهادة . أرضوا الله تعالى بعلمهم وصانوا العلم فصانهم . وتدرعوا من الاعمال الصالحة عما زانهم ولم يشتهم الحرص على الدنيا وخدمة أهلها ان أقبلوا على طاعة الله التى خلقوا لاجلها فأولئك هم الذين عناهم الشافعى بقوله ما أحد أرعى لحقه من الفقهاء وفى رواية ان لم يكن الفقهاء أولياء الله فى الآخرة فما لله ولى . قال ابن عباس لو أن العلماء أخذوا العلم بحقه لأحبهم الله والملائكة والصالحون من عباده ولهابهم الناس لفضل العلم وشرفه وكانت الفقهاء فيما خلا يحملون العلم ويحسنون حمله فاحتاجت اليهم الملوك وأهل الدنيا ورغبوا فى علمهم فلما كان بآخرة كثرت العلماء فحملوا العلم ولم يحسنوا حمله فطرحوا علمهم على الملوك وأهل الدنيا فاحتقروهم واحتقروهم . قال وهب ابن منبه كان العلماء قبلنا قد استغنوا بعلمهم عن دنيا غيرهم فكانوا لا يلتفتون الى

فلهذا كان من علامات أهل العلم النافع انهم لا يرون لأنفسهم حالا ولا مقاما ويكرهون بقلوبهم التزكية والمدح ولا يتكبرون على أحد . قال الحسن انما الفقيه الزاهد فى الدنيا الراغب فى الآخرة البصير بدينه المواظب على عبادة ربه . وفى رواية عنه قال الذى لا يحسد من فوقه ولا يسخر ممن دونه ولا يأخذ على علم علمه الله أجراً . وهذا الكلام الأخير قد روى معناه عن ابن عمر من قوله وأهل العلم النافع كلما ازدادوا فى هذا العلم ازدادوا تواضعاً لله وخشية وانكساراً وذلا .

قال بعض السلف ينبغى للعالم أن يضع التراب على رأسه (١) تواضعا

دنياهم وكان أهل الدنيا يبذلون دنياهم فى علمهم فأصبح أهل العلم اليوم يبذلون لأهل الدنيا علمهم رغبة فى دنياهم وأصبح أهل الدنيا قد زهدوا فى علمهم لما رأوا من سوء موضعه عندهم . فانظر أيها العاقل الى كلام هذا الامام وبيننا وبينه قرون عديدة من الزمن ثم بالك برجالنا الآن اللهم جنبنا طريقة قوم لم يقوموا بحق العلم وأرادوا به الدنيا وأعرضوا عما لهم فى الآخرة من الدرجات العلى فأريقوا حلاوته ولم يتمتعوا بنضارته بل خلقت عندهم ديباجته ورثت حاله . واجعلنا ممن عرف مقداره من السلف والتابعين وتابعيهم فانهم أعطوا العلم فعظموه وبجلوه ووقروه . واستغنوا بنور آرائه بعد المعرفة أفضل ما أعطى البشر واحتقروا فى جنبه كل مفتخر وتمسكوا بقوله تعالى (فما آتانى الله خير مما آتاكم) وكيف لا يكون عملهم كذلك والعلم حياة والجهل موت فبينهما كما بين الحياة والموت وما أحسن قول الشاعر :

وفى الجهل قبل الموت موت لاهله ... وأجسامهم قبل القبور قبور
وان امرأ لم يحى بالعلم ميت ... وليس له حتى النشور نشور

(١) هذا كناية عن كمال التواضع ونهاية الخضوع والانكسار لله جل وعلا والا فوضع التراب على الرأس حقيقة غير مشروع .

لربه فانه كلما ازداد علماً بربه ومعرفة به ازداد منه خشية ومحبة وازداد له ذلا وانكساراً . ومن علامات العلم النافع انه يدل صاحبه على الهرب من الدنيا وأعظمها الرئاسة والشهرة والمدح فالتباعد عن ذلك والاجتهاد في مجانبته من علامات العلم النافع . فاذا وقع شيء من ذلك من غير قصد واختيار كان صاحبه في خوف شديد من عاقبته بحيث أنه يخشى أن يكون مكراً واستدراجاً كما كان الامام أحمد يخاف ذلك على نفسه عند اشتهار اسمه وبعد صيته .

ومن علامات العلم النافع ان صاحبه لايدعى العلم ولا يفخر به على أحد ولا ينسب غيره الى الجهل إلا من خالف السنة وأهلها فانه يتكلم فيه غضباً لله لاغضبا لنفسه ولا قصداً لرفعتها على أحد .

وأما من علمه غير نافع فليس له شغل سوى التكبر بعلمه على الناس(١) واظهار فضل علمه عليهم ونسبتهم الى الجهل وتنقصهم ليرتفع بذلك عليهم وهذا من أقبح الخصال وأرداها .

(١) وما طرأ ذلك عليهم إلا من اعراضهم عن الاشتغال بعلوم الكتاب والسنة وأخذهم بالرأى وتتبع التقاليد والتعصب لها . وقد تفاقم الأمر حتى صار كثير من الناس لايرون الاشتغال بعلوم القرآن والحديث ويرون أن ماهم عليه هو الذي ينبغى عليه المواظبة فبدلوا بالطيب خبيثاً وبالحق باطلا واشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين . ولو نظروا الى كلام السلف في ذلك وعملهم واقتدوا بهم لنجحوا وارتفعوا الى أعلى عليين واستغنوا بعلمهم عن أبناء الدنيا وعبيد الامراء والسلاطين وهاك بعض كلام العلماء العاملين في ذلك . روى الشعبى عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما أنه قال : اياكم وأصحاب الرأى فانهم أعداء السنن أعيتهم الاحاديث أن يحفظوها فقالوا بالرأى فضلوا

وربما نسب من كان قبله من العلماء الى الجهل والغفلة والسهو فيوجب له حب نفسه وحب ظهورها احسان ظنه بها واساءة ظنه بمن سلف . وأهل العلم النافع على ضد هذا يسيئون الظن بأنفسهم ويحسنون الظن بمن سلف من العلماء ويقرون بقلوبهم وأنفسهم بفضل من سلف عليهم وبعجزهم عن بلوغ مراتبهم والوصول اليها أو مقاربتها . وما أحسن قول أبي حنيفة وقد سئل عن علقمة والاسود أيهما أفضل . فقال والله ماهن بأهل أن نذكرهم فكيف نفضل بينهم . وكان ابن المبارك اذ ذكر أخلاق من سلف ينشد

لاتعرضن بذكرنا مع ذكرهم ليس الصحيح اذا مشى كالمقعد

ومن علمه غير نافع اذا رأى لنفسه فضلا على من تقدمه في المقال وتشقيق الكلام ظن لنفسه عليهم فضلا في العلوم أو الدرجة عند الله لفضل خص به عمن سبق فاحتقر من تقدمه واجترأ عليه بقلة العلم ولا

وأضلوا . وقال أيضاً اذا جاءك الخبر عن أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم فضعه على رأسك . واذا جاءك عن التابعين فاضرب به أقفيتهم . وقال عمر بن الخطاب اتهموا الرأى على الدين . وقال عبدالله بن مسعود : يحدث قوم يقيسون الامور برأيهم فيهدم الاسلام . وللسلف في ذلك كلام كثير رضى الله عنهم : وما أحسن قول الشاعر حيث قال

تجنب ركوب الرأى فالرأى ريبة عليك بآثار النبى محمد
فمن ركب الآراء تاه عن الهدى ومن يتبع الآثار يهد ويحمد

وقال بعضهم في ذلك

انظر بعين الهدى ان كنت ذا نظر فانما العلم مبنى على الأثر
لاترض غير رسول الله متبعا مادمت تقدر في حكم على خبر

يظن للسكين ان قلة كلام من سلف انما كان ورعا وخشية لله ولو أراد الكلام واطالته لما عجز عن ذلك كما قال ابن عباس لقوم سمعهم يتمارون فى الدين أما علمتم ان لله عباداً أسكتتهم خشية الله من غير عى ولا بكم. وأنهم لهم العلماء والفصحاء والطلقاء والنبلاء العلماء بأيام الله غير انهم اذا تذكروا عظمة الله طاشت لذلك عقولهم وانكسرت قلوبهم وانقطعت ألسنتهم حتى اذا استفاقوا من ذلك يسارعون الى الله بالأعمال الزاكية يعدون أنفسهم مع المفرطين وانهم لأكياس أقوياء ومع الظالمين والخاطئين وانهم لأبرار برآء الا انهم لا يستكثرون له الكثير ولا يرضون له بالقليل ولا يدلون عليه بالأعمال هم حيثما لقيتهم مهتمون مشفقون وجلون خائفون» خرجه أبو نعيم وغيره». وخرج الامام أحمد والترمذى من حديث أبى امامة عن النبي ﷺ قال «الحياء والعى شعبتان من الايمان والبذاء والبيان شعبتان من النفاق» وحسنه الترمذى. وخرجه الحاكم وصححه (١)، وخرج ابن حبان فى صحيحه عن أبى هريرة عن النبي ﷺ قال «البيان من الله والعى من الشيطان وليس البيان بكثرة الكلام ولكن البيان الفصل فى الحق وليس العى قلة الكلام ولكن من سفه الحق». وفى مراسيل محمد بن كعب القرظى عن النبي ﷺ قال «ثلاث ينقصن بهن العبد فى الدنيا ويدرك بهن فى الآخرة ما هو أعظم من ذلك. الرحم

(١) رواه فى مستدركه عن أبى أمامة الباهلى وقال فى آخره هذا حديث صحيح على شرط الشيخين. والعى قال صاحب مجمع البحار هو التحير فى الكلام والمراد به ما كان بسبب التأمل فى المقال والتحرز عن الوبال لا لخلل فى اللسان: والبذاء بالمد الفحش فى القول. والبيان المذموم تقدم الكلام عليه فراجعه

والحياء وعى اللسان». قال عون بن عبد الله ثلاث من الايمان الحياء والعفاف والعى عى اللسان لا عى القلب ولا عى العمل وهن مما يزددن فى الآخرة وينقصن فى الدنيا وما يزددن فى الآخرة أكبر مما ينقصن من الدنيا. وروى هذا مرفوعا من وجه ضعيف».

وقال بعض السلف ان كان الرجل ليجلس الى القوم فيرون أن به عيا وما به من عى انه لفقيه مسلم: فمن عرف قدر السلف عرف ان سكوتهم عما سكتوا عنه من ضروب الكلام وكثرة الجدال والخصام والزيادة فى البيان على مقدار الحاجة لم يكن عياً ولا جهلا ولا قصوراً وانما كان ورعا وخشية لله واشتغالا عما لا ينفع بما ينفع. وسواء فى ذلك كلامهم فى أصول الدين وفروعه. وفى تفسير القرآن والحديث. وفى الزهد والرقائق. والحكم والمواعظ. وغير ذلك مما تكلموا فيه فمن سلك سبيلهم فقد اهتدى ومن سلك غير سبيلهم ودخل فى كثرة السؤال والبحث والجدال والقيل والقال. فان اعترف لهم بالفضل، وعلى نفسه بالنقص كان حاله قريباً، وقد قال اياس بن معاوية ما من أحد لا يعرف عيب نفسه الا وهو أحمق قيل له فما عيبك قال كثرة الكلام. وان ادعى لنفسه الفضل ولمن سبقه النقص والجهل فقد ضل ضلالا مبيناً وخسر خسراناً عظيما».

وفى الجملة ففى هذه الأزمان الفاسدة إما أن يرضى الانسان لنفسه أن يكون عالماً عند الله أو لا يرضى الا بأن يكون عند أهل الزمان عالماً فان رضى بالأول فليكتف بعلم الله فيه. ومن كان بينه وبين الله معرفة اكتفى بمعرفة الله اياه: ومن لم يرض الا بأن يكون عالماً عند الناس دخل

في قوله ﷺ «من طلب العلم ليباهي به العلماء أو يماري به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس اليه فليتبوأ مقعده من النار».

قال وهيب بن الورد رب عالم يقول له الناس عالم وهو معدود عند الله من الجاهلين. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ «ان أول من تسعر به النار ثلاثة أحدهم من قرأ القرآن وتعلم العلم ليقال هو قارئ وهو عالم ويقال له قد قيل ذلك ثم أمر به فيسحب على وجهه حتى ألقي في النار». فان لم تقنع نفسه بذلك حتى تصل الى درجة الحكم بين الناس حيث كان أهل الزمان لا يعظمون من لم يكن كذلك ولا يلتفتون اليه فقد استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير وانتقل من درجة العلماء الى درجة الظلمة.

ولهذا قال بعض السلف لما أريد على القضاء فاباه انما تعلمت العلم لأحشر به مع الانبياء لا مع الملوك فان العلماء يحشرون مع الانبياء والقضاة يحشرون مع الملوك. ولابد للمؤمن من صبر قليل حتى يصل به الى راحة طويلة فان جزع ولم يصبر فهو كما قال ابن المبارك «من صبر فما أقل ما يصبر ومن جزع فما أقل ما يتمتع». وكان الامام الشافعي رحمه الله ينشد:

يا نفس ما هي الا صبر أيام   كأن مدتها أضغاث أحلام
يا نفس جوزي عن الدنيا مبادرة   وخل عنها فان العيش قدامي

فنسأل الله تعالى علماً نافعاً ونعوذ به من علم لا ينفع، ومن قلب لايخشع. ومن نفس لاتشبع ومن دعاء لايسمع. اللهم انا نعوذ بك من هؤلاء الأربع الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

(فصل) ليتدبر ماذم الله به أهل الكتاب من قسوة القلوب بعد اتيانهم الكتاب ومشاهدتهم الآيات كاحياء القتيل المضروب ببعض البقرة. ثم نهينا عن التشبه بهم في ذلك. فقيل لنا (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) (١) وبين في موضع آخر سبب قسوة قلوبهم فقال سبحانه (فبما نقضهم

---

(١) قال ابن كثير هذه الآية نزلت في المؤمنين على ماروى عن ابن عباس أنه قال ان الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن. قال الزجاج نزلت في طائفة من المؤمنين حثوا على الرقة والخشوع وروى مسلم والنسائي وغيرهما عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال ما كان بين اسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية الا أربع سنين. وأوضح من هذا مارواه البزار في مسنده فذكره. قال سفيان الثوري عن المسعودي عن القاسم قال مل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ملة فقالوا حدثنا يارسول الله فأنزل الله تعالى (نحن نقص عليك أحسن القصص) قال ثم ملوا ملة فقالوا حدثنا يارسول الله فأنزل الله تعالى (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع) الآية أي أما آن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم وتلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن فتفهمه وتنقاد له وتطيعه ويورثهم الذكر خشوعاً ورقة (ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم) «نهى الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى لما تطاول عليهم الامد أي الزمان بينهم وبين أنبيائهم بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم واشتروا به ثمنا قليلا ونبذوه وراء ظهورهم وأقبلوا على الآراء المختلفة والاقوال المؤتفكة وقلدوا الرجال في دين الله واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله فعند ذلك قست قلوبهم فلا يقبلون موعظة ولا تلين قلوبهم بوعد ولا وعيد

ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية) فأخبر أن قسوة قلوبهم كان عقوبة لهم على نقضهم ميثاق الله وهو مخالفتهم لأمره وارتكابهم لنهيه بعد أن أخذ عليهم مواثيق الله وعهوده أن لا يفعلوا ذلك . ثم قال تعالى (يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به) .

فذكر أن قسوة قلوبهم أوجبت لهم خصلتين مذمومتين . احداهما تحريف الكلم من بعد مواضعه . والثانية نسيانهم حظاً مما ذكروا به . والمراد تركهم واهمالهم نصيباً مما ذكروا به من الحكمة . والموعظة الحسنة فنسوا ذلك وتركوا العمل به وأهملوه .

وكثير منهم فاسقون أى فى الاعمال فقلوبهم فاسدة وأعمالهم باطلة كما قال تعالى (فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به) اى فسدت قلوبهم قست وصار من سجيتهم تحريف الكلم عن مواضعه وتركوا الاعمال التي أمروا بها وارتكبوا مانهوا عنه . ولهذا نهى الله المؤمنين ان يتشبهوا بهم فى شيء من الامور الاصلية والفرعية .

ومن احس قسوة فى قلبه وجمود فى فهمه وملل فى جسمه فليرجع الى ذكر الله عز وجل وتلاوة كتابه والفكر فى معنى احاديث نبيه ﷺ يرجع اليه حاله ويلين له قلبه وتنقاد اليه نفسه كما اشار تعالى عقب الآية المتقدمة (اعلموا أن الله يحي الارض بعد موتها) قال ابن كثير فيه اشارة الى أن الله تعالى يلين القلوب بعد قسوتها ويهدى الحيارى بعد ضلتها ويفرج الكروب بعد شدتها كما يحيي الارض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الهتان الوابل كذلك يهدى القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل ويولج فيها النور بعد أن كانت مقفلة لا يصل اليها الواصل فسبحان الهادى لمن يشاء بعد الضلال . والمضل لمن أراد بعد الكمال الذى هو لما يشاء فعال . وهو الحكيم العدل الفعال اللطيف الخبير الكبير المتعال .

وهذان الأمران موجودان فى الذين فسدوا من علمائنا لمشابهتهم لأهل الكتاب . أحدهما تحريف فان من تفقه لغير العمل يقسو قلبه فلا يشتغل بالعمل بل بتحريف الكلم وصرف ألفاظ الكتاب والسنة عن مواضعها . والتلطف فى ذلك بأنواع الحيل اللطيفة من حملها على مجازات اللغة المستبعدة ونحو ذلك . والطعن فى ألفاظ السنن حيث لم يمكنهم الطعن فى ألفاظ الكتاب . ويذمون من تمسك بالنصوص وأجراها على ما يفهم منها ويسمونه جاهلاً أو حشوياً .

وهذا يوجد فى المتكلمين فى أصول الديانات وفى فقهاء الرأى . وفى صوفية الفلاسفة والمتكلمين . والثانى نسيان حظ مما ذكروا به من العلم النافع فلا تتعظ قلوبهم بل يذمون من تعلم ما يبكيه ويرق به قلبه ويسمونه قاصاً .

ونقل أهل الرأى فى كتبهم عن بعض شيوخهم ان ثمرات العلوم تدل على شرفها . فمن اشتغل بالتفسير فغايته أن يقص على الناس ويذكرهم . ومن اشتغل برأيهم وعلمهم فانه يفتى ويقضى ويحكم ويدرس وهؤلاء لهم نصيب من الذين (يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة غافلون) والحامل لهم على هذا شدة محبتهم للدنيا وعلوها ولو انهم زهدوا فى الدنيا ورغبوا فى الآخرة ونصحوا أنفسهم وعباد الله لتمسكوا بما أنزل الله على رسوله . وألزموا الناس بذلك . فكان الناس حينئذ أكثرهم لا يخرجون عن التقوى فكان يكفيهم ما فى نصوص الكتاب والسنة ومن خرج منهم عنهما كان قليلا . فكان الله يقيض من يفهم من معانى النصوص ما يرد به الخارج عنها الى الرجوع اليها ويستغنى بذلك عما ولدوه من الفروع الباطلة . والحيل المحرمة التى بسببها

فتحت أبواب الربا وغيره من المحرمات واستحلت محارم الله بأدنى الحيل كما فعل أهل الكتاب (وهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم) وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيراً الى يوم الدين وحسبنا الله ونعم الوكيل *

(تم والحمد لله)

فهرس كتاب فضل علم السلف على الخلف

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

﴿ تمت الفهرست ﴾

٢٥ مبارق الازهار فى شرح مشارق الانوار للصغانى جزء ٢
٣ مفتاح الجنه بالاحتجاج بالسنه للسيوطى
٣ فضل علم السلف على الخلف للشيخ رجب
٢٥ مختار الامام مسلم مشكول ومشروح جزء ٢
١٥ شرح شرعه الاسلام المسمى مفاتيح الجنان لعلي زاده مع جملة رسايل اخرى
٤ الاوائل السنبليه لكتب الحديث ومعه بغيه أهل الاثر
٤٠ امالى الشريف المرتضى فى الحديث والتفسير والادب جزء ٤
٠٦ تميز الطيب من الخبيث فيما يدور على السنة الناس من الحديث
١٥ تأويل مختلف الحديث للامام ابن قتيبة الدينورى
٠٦ ثلاث رسائل لنجل الامير عبد القادر حديث وتفسير وغيره
٠٥ الدعامه في أحكام العمامة والشارب واللحية واللباس للكتانى
١٠ الشرح الكبير على الجامع الصغير للمناوى والعلقمى (أول) فقط
٠٦ مشارق ألانوار ٢٢٥٣ حديثا من البخارى ومسلم للصغاني
٤٠ النهايه فى غريب الحديث لابن الاثير وبها غريب القرآن للراغب الاصفهانى
٠٥ الهبات البينات فى كشف أربع أربعينات من الحديث
٠٨ أصابة السهام بالعمل بسنة خير الانام للشيخ خطاب السبكى
٠٥ تحفه الانوار نظم شمائل المختار لمولاى عبد الحفيظ
١٥ الشفا بتعريف حقوق المصطفى مشكول للقاضى عياض مجلد
٤٥ شرح الشفا للخفاجى ٤ و ٣٥ شرحه للملا على جزء ٢
٠٢ منح المنه فى التمسك بالشريعة والسنة للامام الشعرانى طبعه حديثه